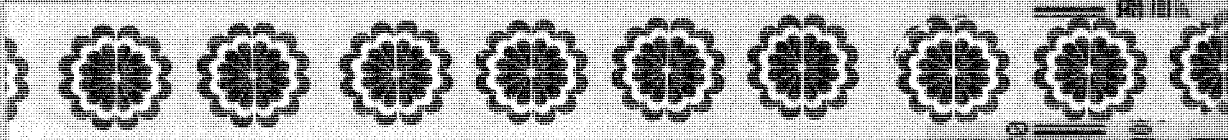
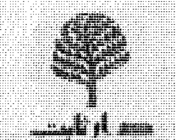
خالد محمد خالد

معاً على الطريق..

محمد والمسيح

«الأنبياء إخوة
أمهاتهم شتى
ودينهم واحد»





دار ثابت

معاً على الطريق
محمد والمسيح

خالد محمد خالد

معاً على الطريق ..



محمد والمسيح

«الأنبياء إخوة
أمهاتهم شتى
ودينهم واحد»
محمد رسول الله





دار ثابت للنشر والتوزيع : ٩٢ أ شارع محمد فريد ـ ص ب : ٦ باب اللوق ـ تليفون : ٧٦٩٥٧٤

الإهـــــداء

إلى الذين يعملون في مثابرة ، ومَحَبَّة ..
مِن أجْل الإنسان ..
ومِن أجْل الحياة ..

بِسم الله الرحمن الرحيم

مقَـــدِّمة

هذا ما أريده تماماً ..

أن أقول للذين يؤمنون بالمسيح ، وللذين يؤمنون بمحمد :

برهان إيمانكم إن كنتم صادقين ، أن تهبوا اليوم جميعاً لحماية الإنسان .. وحماية الحياة .. !!

وليس هذا الكتاب تأريخاً للمسيح ، ولا تأريخاً للرسول .. فتاريخهما قد بُسِط بسْطاً لا يشجع على التكرار ..

وإنما هو تبيِّان لموقفهما من الإنسان ، ومن الحياة .. أو بتعبير أكثر سَدَاداً .. موقفهما « مع » الإنسان .. و« مع » الحياة ..

■ □ ■

لقد أخذني حَنينٌ واعٍ إلى الكتابة عن الرسول ، وعن المسيح ..

وفي ذات الوقت ، كان يناديني الواجب الذي كرَّستُ له ، أو أريد ـــ دوماً ـــ أن أكرس له حياتي ... وهو الإسهام في حماية الإنسان ، والحياة ، من الكذب .. ومن العجز .. ومن الخوف ...

وفي اللحظة التي يعطي فيها وجدانُ الكاتب إشارةَ البدء ، وَجدتُني أكتب هذا الموضوع ، تحت هذا العنوان .. !

ولم أسأل نفسي ، كيف تمَّ هذا اللّقاء السعيد بين رغبتي في أن أكتب عن محمد . وأخيه ، ورغبتي في الكتابة عن الإنسان ، والحياة .. !

فأنا أكاد أعرف — تماماً — لماذا جاء محمد .. ولماذا جاء المسيح ..

وإنه فوق أرض فلسطين ، شهد التاريخ يوماً ، إنساناً شامخ النفس ، مستقيم الضمير ، بلغ الإنسانُ في تقديره ، الغاية التي جعلته ينعَتُ نفسه بـ« ابن الإنسان » ..

وابن الإنسان هذا ، ذو العبير الإلهي .. تتركنا كلماته ، و يتركنا سلوكه .. ندرك إدراكاً وثيقاً ، الغرضَ العظيم الذي كابدَ تحقيقه ، ألا وهو: إنهاض الإنسان ، وإزهار الحياة .

ومن بعده بستمائة عام .. تأخذ الأرض زينتها لتستقبل إنساناً آخر . ما يكادُ يُسأل عن أفضل الأعمال وأبقاها ، حتى يجيب : بذل السلام للعالَم .. وأن تعيشوا — عبادَ الله — إخواناً .. !!

و يغار على الإنسان .. حتى إن فؤاده الذكيّ ، ليكاد يتفطّر أسًى على موبقاته .. و يتفجّر أملاً في مستقبله ، وثقة في قدْرَاته ..

أيها الإنسان ..

لماذا تسجد للأصنام .. ؟؟ ولو كان ثمّة من يُسجد له غير الله .. لكنتَ وحدك ذلك المعبود .. !

ولماذا تَذِلُّ للسّادة ، والأعلين .. وأنت هنا ، وفي هذه الأرض ، خليفةُ الله .. !

و ياأيها الناس ..

لماذا تعيشون طبقات .. وقد خلقكم الله سَواسية كأسنان الْمُشْط ، ولم يُجْعَل لابن البيضاء على ابن السوداء فضلٌ إلا بالعمل والتقوى ...

ويحب الحياة حُبَّ عاشِق عظيم .. فيستقبلها عند صُبح النهار، وممساه .. وفي ناشِئة الليل ، وآخراه .. و يعانقها في الزرع الطالع وفي المطر الهاطل ..

■ □ ■

و بعد ، فعلى الصفحات المقبلة ، سنلتقي بفيض من اللّفتات الذكيّة ، والتوجيهات السديدة التي نحّت عن الإنسان كثيراً من مثبطاته . وسنبصر في ضياء اللمسات الرفيعة الهادية ، جميع الجلال الذي أراده للإنسان وللحياة ، محمد ، والمسيح ..

ومن سلوكهما هذا ، وتوجيهاتهما تلك ، سيأخذ وَلاء المؤمنين بالإنسان و بالحياة ، زاداً باقياً .

وحسبنا هذا ، حين نذكرهما في مقام التأريخ والتمجيد .. وفي مقام القدوة والتأسّي .

خالد

مراجـــع

١ ــ القرآن الكريم
٢ ــ الكتاب المقدس
٣ ــ تيسير الوصول إلى جامع الأصول من أحاديث الر
٤ ــ ابن الإنسان ــ اميل لودفيج
٥ ــ قصة الحضارة ــ ديورانت

الفَصْلُ الأوّل

سُقْرَاط يَقْرَعُ الأجْرَاس

كـانـا نـبـأ مُـسـتسرّاً في مشيئة الله ، لم يُعرف بعد .. ولا تنبأ بقدومها أحد ..

وكـانـت الحياة ماضية على نهجها ، وبين الحين والحين ، تقدم للناس نماذج سديدة مـن البشر ، يـأخـذ ذووها مـكـان الـرواد والقدوة ، أمام الـصـفـوف الـزاحـفـة من الخلق . وتضربهم الحياة مثلاً لسعيها الحثيث في سبيل التفوق ، والكمال .

وعلى حين بغتة ، ومـن بيـت مـتواضع يقيم داخل جدرانه رجل فقير يحترف نحت الحجارة ، وصنع التماثيل .. فتحت الحياة باباً ضيقاً ، ليخرج مـنـه إلى الـدنيا إنسان جاحظ العينين أفطس الأنف ، قد زهدت قسمات وجـهـه فـي الوسامة ، فازْوَرّت عنها ، وتلفعت بخشونة مستأنسة .. وترقّب الـنـاس فـي لامـبـالاة ، شـفـتـيه الغليظتين لينظروا ما وراءهما ، إن كان وراءهما شيء .

واقـشـرب الـرجـل فـي خـطوات وئيدة ثابتة ، ونظرات حصيفة طيبة . وتحـركـت شـفتاه الغليظتان في أناة ، وتحولت ابتسامات الناظرين إليه ، الى قهقهات عالية :

ـــ يا له من ساذج .. لماذا لا يفتح فمه و يريحنا .. ؟!

وواصـل تـقـدمـه ، خـطوة . وفي الجموع سر غامض يدعوها لتفسح له الـطـريـق ، حـتـى إذا شقها صفّين طويلين ، وأشرف على وجودها ، بادَهَ

الوجوه المنتظرة بسؤال :

ـــ لماذا لاتبحثون عن الخير؟؟

ـــ لأننا نعرفه ، يا سقراط .

ـــ إذن ، فلماذا ما دمتم تعرفونه ، لاتفعلونه .. ؟؟

ـــ أليس يكفي أن نكون خبراء في حذقه يا سقراط .. ؟؟

ـــ كلا ! ليس الخبير فى الخير من يعرفه ، بل من يملكه .. !!

ثم إني أشك في مجرد خبرتكم به ، ومعرفتكم له .. فهل تعرفونه حقاً .. ؟؟

ـــ أجل ، أجل . نعرفه كما نعرف أنفسنا .

ـــ إذن ، فأنتم تعرفون الغرض الحقيقي لحياتكم .. ؟

ـــ نعم .. أن نعيش ، يا سقراط .

ـــ لكن البهائم تعيش ..

ـــ نعيش عيشة صالحة ، يا سقراط ..

وصاح سقراط وسط لجّة من الحبور:

حسن هذا .. حسن كثيراً .. وإذن ، تعالوا نعرف ما هي المعيشة الصالحة .. فعندئذـــ فيا أظن ـــ سنكون قادرين على أن نعرف ، ما هو الخير.

ثم أخذه ما يشبه الرُّعَوَاء ، فحنى رأسه قليلاً ، وأسبل جفنيه ، و بعد حين عاد إلى وضعه الأول ، ليقول لهم :

« إنها الإشارة الإلهية تعاودني .. إنها تأمرني أن أتعاون معكم على معرفة الحق ، لأنه لاسبيل للعمل به قبل معرفته » ..

■ □ ■

ماذا كان هذا الرجل سقراط .. ؟؟

وما علاقته بحديث عن محمد ، والمسيح .. ؟؟

أما علاقته بهذا الحديث ، فَجِدُّ وثيقة ، وعما قريب نتبينها .

وأما هو فأبو الفلسفة ، الذي علّم الناس أن يبحثوا ، و يفكروا — والذي لايزال الفكر الإنساني يحيا في ضياء باهر من عقله ، ومن عقول تلامذته .. !

ولكن ، أليس عجباً أن أبا الفلسفة هذا ، الذي زلزل سكينة العقول الهاجعة بسؤاليه الدائبين : كيف .. ؟ ولماذا .. ؟ والذي أطلق عقله المحص الجوّاب ، يفضُّ مغاليق الأسرار، و يناقش المسلّمات ...

أليس عجباً أن يصغي لصوت آخر، له طبيعة غير طبيعة العقل ، ذلكم هو صوت الوحي .. أو ما أسماه هو: « الإشارة الإلهية » .. ؟ !

إن هذه أولى علاقات سقراط بحديثنا ، وليست آخرها .. وإن في حياته معالم كثيرة جديرة بأن نتملاها ونشاهدها ، فلنعش لحظات في صحبة هذه الحياة .

لقد ازدهرت « أثينا » برجلها المضيء ، وتحولت بذكائه الثاقب ، وروحه الحي ، إلى حديقة زاخرة بثمار المعرفة وقطوفها الدانيات .

وآناءَ الليل ، وأطراف النهار، أخذت شوارعها ، وأنديتها تشهد عقلاً فذاً يعبرها دواماً و يغشاها . كانساً أمامه لغو « المشائين » وسفسطتهم ، وهاتفاً بأسمى ما في الإنسان كي يستيقظ و يفيق .

وإنه ليناقش الناس في كل شيء ، و يدير الحوار في غير تهيب ، حول الآلهة ، والفضيلة ، والخير، والشر، والجمال .. ثم لا يفتأ يُذَكّر بأننا نحمل داخل ذواتنا شيئاً ، هو أثمن ممتلكاتنا .. شيئاً عظيماً وقوياً ينتظرمنا أن نعرفه ونجيد معرفته : ذلك الشيء ، هو أنفسنا .

إننا لسنا هملاً ، ولسنا نَفضَ الدهر، ولانتاج المصادفات، بل نحن أبناء مشيئة كبرى اصطنعتنا لغرض كبير.. ونقطة البدء في مسيرنا الطويل هي معرفة أنفسنا .

ومضى ، يلقح العقل الإنساني ، ويهدي القلب ، حتى جاء اليوم الذي شق فيه على الأرض أن تتحمل وطأته الجليلة .. وتقدم بعض الشريرين كي يضعوا الختام اللائق لحياة باهرة ، يراد لها من بارئها أن تكون مثالاً يُحتذى ، وعزاء يلتمس ، ومشعلاً يهدي الى خير ما في الحياة من فضائل باقية : الصدق .. والبذل ، والمثابرة .

ويجتمع قضاة أثينا ليحاكموا الفيلسوف بتهمتي الهجوم على الآلهة ، وإفساد الشباب .

وساق الاتهام كل ما استطاع حشده من فنون الأفْك وصنوفه .

وتقدم الإنسان الصادق ، الباذل ، المثابر ، وانفرجت شفتاه الغليظتان في غير بطء هذه المرة .. كأن صاحبها يعاني شوقاً الى مصيره الذي أسماه الناس الموت ، وأسماه هو الانتقال ، أو السفر .

وفي هذه اللحظات أكثر من سواها ، وجد سقراط حقيقته وعرفها . فأراد ــ قبل أن يمضي ــ أن يلخص كل دوره ومهمته . وأراد ــ قبل أن يمضي ــ أن ينفخ في هذا الدور من روحه الخليق بالخلود ليبقى دوره حياً من بعده . يمشي في الدروب مثلما كان يمشي .. و يغشى الأندية التي كان يغشاها .. و يتحدث إلى الناس الذين طالما تحدث إليهم .. و يلقى نفس الأسئلة .. و يؤدي ذات الرسالة التي كان صاحبه يؤديها حيّاً .

هنالك تقدم في ثقة أزعجت خصومه ، وقال :

ــ « يا قضاة أثينا ..

« كم كان سلوكي سيبدو سيئاً ، لو أنني عصيت الله فيما

أعتقد أنه يأمرني به ، فنكصت عن أداء رسالة الفلسفة ، وتوقفت عن دراسة نفسي ، ودراسة الناس ، وفررت مما كلفني به خشية الموت .. وأنا الذي حين أمرني القواد في « بوتيديا » ، و« دليوم » أن ألزم موضعي لزمته ، وواجهت الخطر والموت ..

« أيها الأثينيون :

« إني أمجدكم وأحبكم . ولكن لأني أطيع الله أكثر مما أطيعكم ، فلن أدع الفلسفة مادمت حياً . سأواصل أداء رسالتي . سأدنو من كل من يصادفني في الطريق وأهيب به قائلاً :

ألا تخجل ياصاح من انكبابك على طلب الجاه والثروة ، وانصرافك عن الحق والحكمة .. وعن كل مايسمو بروحك ..

« إن من يحارب مخلصاً في سبيل الحق ، لن يمتد به الأجل إلى حين ، ومن أجل هذا ، فأنا لا أخاف الموت .. أجل إني لا أخافه ، ولا أعرف طعمه . ولعله شيء جميل . غير أني على يقين من أن هجران واجبي ، شيء قبيح .. ولذا ، فحين أخيَّر بين الموت الذي يحتمل أن يكون جميلاً ، وترك الواجب الذي هو من غير شك قبيح ، فإني لا أتردد في اختيار الأول فوراً .

« بني أثينا ..

« منذ طفولتي ، يلازمني وحي .. هو عبارة عن صوت يطوف بي ، فينهاني عن أداء بعض ما أكون قد اعتزمت أداءه .. وإن جاز أن أسوق لكم تشبيهاً مضحكاً ، لقلت

إني ضرب من الذباب النشيط ، أرسله الله لهذه الأمة التي هـي بمثـابـة جـواد ثـقـيـل الحركة . ولا بد له في حياته من حافز..

« أنا ذلك الحافز.. ولقد وجدتم مني ناقداً منبهاً ، يثابر على فحص آرائكم ، ويحاول إقناعكم عن حق ، بأنكم تجهلون بالفعل ، ماتتوهمون عرفانه ..

« وإن الخير الأعـظـم لـكـم ، هـو أن تـتـركـونـي أُواصِـلُ رسـالـتـي . أمـا إذا أردتم تـبـرئتي على أن أترك البحث عن الخير، وعـن الحـق ، فـسـيـكون جوابي : أنا شاكر لكم أيها الأثـيـنـيـون .. ولكنني أوثر طاعة الله الذي أعتقد أنه ألقى على كاهلي هذا العبء الجليل » .

■ □ ■

وأخيراً ، يُحكم على سقراط بالموت .. وتتهيأ له فرصة الفرار والنجاة . وهنا ، مشهد آخر لا بد من وقفة تجاهه ..

مـشـهـد نـفـر مـن تـلامـذته ، يجلسون اليه داخل سجنه ، ويخبرونه في جـذل ، أنهـم أعطوا السجان رشوة وافق بعدها على تهر يبه . وأنهم هيأوا له أسباب السفر إلى « تسالي » حيث يعيش هناك مع رسالته الكبرى .

وكـأنمـا حـسـبـوا أنهـم يـزفـون إلـيـه بشرى .. ! وما كادوا يفرغون من حـديـثـهـم ، حـتـى مضى على طر يقته يفند رأيهم في أناة ، كأنه معلم في مدرسة . وقته متسع ، وفرصته مواتية .. !

ولـيـس محـكوماً عليه بالإعدام ، سيعطَى بعد حين قر يب كأس السم ليتجرعه ، و يسيغه .. !!!

ــ « .. ولـكن لماذا أهرب ــ يا أقر يطون ــ من الموت ؟؟

طبعاً ، لأظفر بالحياة ..
حسن هذا .. وإذن فلنبدأ بأن نعرف ، ما الحياة .. ؟ »

ثم ينثال حديثه الواثق العذب ليخبرهم أن مجرد الحياة ، أمر لا يعني الرجل العاقل .. وإنما تهمه فقط ، الحياة التي تلتزم الصواب . فهل الهروب صواب .. ؟؟

ـــ « .. ثم كيف أستطيع ـــ يا أقريطون ـــ إذا ارتكبت رذيلة الجبن ، أن أتحدث عن فضيلة الشجاعة » .. ؟ !

و يقتنع تلامذته . بل يخجلون ..
وحين يسألونه ، على أى نمط يحب أن يُدفن ؟
يجيبهم :

« على أي نمط تشاءون . إنكم ستدفنون الجسد وحده .
أما الروح فذاهبة الى مكان يبعث فيها السرور.
هناك بين المباركين .. !
لن أمكث بعد مماتي » ...

وفي الميقات المعلوم . يُجاء له بكأس صغيرة ، تحمل في ذَوبها ، منيته . فيأخذها بيد ثابتة ، و يدفعها الى فمه .. ثم يتمهل قليلاً ريثما يدعو « اللهم اجعلها رحلة مباركة سعيدة » .
و يتجرع السم .
ويموت سقراط .
أو على حد تعبيره هو: يموت جسد سقراط .. !

■ □ ■

لماذا بدأنا موضوعنا بهذه البداية الطيبة . ؟

ومرة أخرى .. ماعلاقة سقراط بحديث عن محمد ، والمسيح ؟

إن الذين تفتحت بصائرهم على قسمات هذه الحياة التي عرضناها في إيجاز شديد ، لن يجدوا أنفسهم في حاجة الى سؤال كهذا .

● فسقراط فيلسوف لانبي . وهويعلن أنه لن يذر الفلسفة ومحاورة العاكفين على أساطير الأولين مادام فيه نَفَس يتردد .

● وهو لا يسأل الناس على تعليمهم أجراً ، و يرفض كل مثوبة مادية تقدم إليه .

● وهو كفيلسوف ، يهمه أن يعرف .. وأن يجمع معارفه بنفسه ، وبجهده العقلي المتحرر.

● ثم إنه كان يحمل عقلاً شامخاً وشاهقاً لا يتلقّى ، وإنما يناقش .. ولا يقلد ، لكنه يخلق .

● وهو ضد الأحكام الجاهزة ، والآراء المسبقة . ولا يرضى للناس أن يقولوا ــ ولو للصواب ذاته ــ سمعنا وأطعنا .. بل يجب عليهم أن يقفوا .. و ينظروا .. و يسمعوا .. حتى إذا تبين لهم أنه الحق أخذوه وعانقوه .

● وهو لم يقل للناس : « اعرفوا ربكم » بل قال لهم ، وفي إلحاح دائب ذكي : « اعرفوا أنفسكم » .

سقراط ، إذن ، رجل عقل يستعمل عقله في أوسع نطاق .. و يدعو الناس لاستعمال عقولهم . وإنه ليحترم كل ماللعقل من حق في المناقشة ، والمعارضة . بل وفي الشك .. ومع هذا ..

● فهو يصغي كثيراً لصوت آخر غير صوت العقل . هذا الذي أسماه « الإشارة الإلهية » أو « الإشارة المقدسة » أي أن الفيلسوف الذي جعل العقل مصدر تفكيره .. قد جعل الوحي أو الإلهام الضاغط موضع احترامه وتلبيته .

● وهو أيضاً ، يفسر الحياة تفسيراً دينياً ، فليست دنيانا هذه هي المنتهى .. بل واحة في الطريق . وليست نهايته .

و يفسر الموت بمثل ذلك ، فهو عنده دفن للجسد وحده ، أما الروح فلها الخلود في عالم يسرّ الصالحين .

● وهو يحسُّ للموتى قيامة و بعثاً .. ينهضون من قبورهم ، ليستأنفوا رحلتهم وحياتهم .

ألم يقل لأقريطون : « لن أمكث بعد مماتي » . ؟ !

● وهو قبل هذا ، يؤمن بألوهة طيبة ، وربوبية قادرة ، تدعو الناس إلى معرفة الحق ، وفعل الخير .

وهكذا ، يتبدّى لنا « سقراط » بذاراً جديداً مترعاً بالحياة ، تزرعه السماء في الأرض ، ليؤتي أشهى وأبقى ثمارها .

و يقف الفيلسوف ، هادياً يقرع أجراس الحياة العظيمة ، وسط بشرية غافية ، كي تلقي سمعها ووعيها ، إلى الرنين الصادق الذي أهلّت مع هذا الرجل عصورُه وأزمانه .

ولسوف يظل العالم ثملاً ــ في غير غيبوبة ــ بعذوبة ذلك اللحن السقراطي إلى ما شاء الله .

ولكن ، بعد خمسمائة عام من موت العازف العظيم وسفره ، سيفد إلى الحياة هادٍ جليل ، ومبدع فذّ ، يمشي الهوينا في دروب فلسطين ، وسهولها .

ثم بعد ستمائة عام أخرى .. يزور الدنيا .. هاد آخر جِدّ عظيم .. يعبر شِعاب مكة .. و يصعد في جبالها متأملاً وضارعاً .. حتى إذ وجد اليقين الذي يبحث عنه .. وحتى إذا قال له الوحي « قم فأنذر » .. نهض في الناس نذيراً و بشيراً ..

ولكن إنسان أورشليم .. وإنسان مكة .. يختلفان عن إنسان أثينا . فالأخير، يلبس رداء الفلسفة ، ومحمد والمسيح ، يلبسان رداء الرسالة .

وهنا ، وبعد الحديث القريب الذي سقناه ، نلتقي بالحكمة التي نبحث عنها ، والتي من أجلها وقفنا هذه الوقفة مع سقراط .

فالفيلسوف الذي ترك في الفكر الإنساني كله طابعه الأصيل الفريد ، والذي لايزال مكانه من فلاسفة عالمنا ومفكريهم ، مكان الأستاذ ، والمعلم .. كان يؤمن بالغيب .

يؤمن بالله .. وباستئناف الحياة بعد الموت .. وبوحي يتلقاه المصطفون الأخيار عن الروح الأكبر المشع في هذه الأكوان العظيمة .

صحيح أنه حارب الآلهة ، ولكنه لم يحارب الإيمان الذكي .. والآلهة الذين حاربهم هم أولئك المتربعون فوق جبل « أولمب » يتعاركون ، ويتبادلون كل مايتبادله صغار الناس من أحقاد ، ومؤامرات ، ومكايد .. !

شَهَّر « سقراط » بهذا النوع من الآلهة ، وبهذا الطراز من الإيمان .. واحتفظ بإيمان ذكي بألوهة طيبة عظيمة .

وفي أى العصور مارس الفيلسوف الكبير المتمرد إيمانه ذاك .. ؟

في أعظم عصور العقل السالفة ، معرفة وإشراقاً .. العصر الذي استطاع العقل الإنساني خلاله — ومن غير أن تكون معه مختبرات وأجهزة — أن يحسَّ حركة الأرض ، وكرويتها ، ويستشرف داخل الذرات التي تبدو ضئيلة تافهة ، شموساً هائلة وطاقات مذهلة .

وإذن ، فعندما يجيء بعد رحيل سقراط بزمن يطول أو يقصر من يدعو الناس للإيمان بالغيب ، فإن واجبهم أن يقفوا .. وينظروا .. ويسمعوا .

أجل ، لا أقلّ يومئذ ، من أن يسألوا أنفسهم :

لماذا لا يكون هذا حقاً ..

ألم يحدثنا بمثله من قبل . رجل خارق الذكاء ، صادق الخلق ، كبير الإيمان بالعقل ، و بالمنطق .. شديد الولع بالحوار ، و بالشك ، اسمه : سقراط .. ؟

أجل . لماذا لا يكون حقاً .. ؟

أو على الأقل ، لماذا لا نصغي الى ما يقولون .. ؟

صحيح أن سقراطاً ، حدثنا بأشياء ، اكتشفنا فيما بعد خطأها .. بيد أنها كانت من تلك التفصيلات التي تشبه الافتراضات التي يتوسل بها العلماء لاكتشاف نظرياتهم حتى إذا برزت النظرية كحقيقة حية لم يعد لتلك الافتراضات قيمة ، ولم تؤثر « وهميتها » في قيمة النظرية وصدقها . على أن جميع القِيَم التي والاها سقراط ، وآمن بها و بَشَّر .. كالحق ، والخير ، والجمال .. لا تزال ، وستظل خالدة ، صادقة ، شامخة ، لا يزيدها العلم إلا ألَقاً وقوة .

فلِمَ لا يكون الإيمان كذلك ، سيما والعلم لم يستطع أن يصل الى يقين بنقيضه ..

و بعد .. ففي سقراط ، التَقى العقل ، والوحي .
وفي سقراط : بَشّرت الفلسفة بالدين ..

الفَصْلُ الثّاني

الهِـدَاية تُرسِلُ سَفَائِنَهَا

أكان سقراط وحده يرفع لواء الخير والمعرفة و يقرع الأجراس ؟

كلا .. ففي أقطار شتى من الأرض ، كانت الهداية ترسل سفائنها وفي الأفق العالي البعيد ، كانت الشُّرُع تتعانق ، وفي عباب الحياة الإنسانية ، كانت السفن تمضي ماخرة ، هادرة ، تحمل للناس رسالات الهدى ، وفلسفات الخير والصلاح .

فَقَبْلَ « سقراط » بمئات كثيرة من السنين ؛ كانت هناك في مصر القديمة ، وفي أشور، وفي بابل ، محاولات مُثابِرةٌ لاستجلاء الرُّشد والخير.

وكان « اخناتون » في مصر القديمة يعلن أن الإله واحد .. و يقاوم تعدد الآلهة وعبادة الأوثان . و يناجي إلهه الواحد ـــ آتون ـــ بقوله :

(أنت جميل ، وعظيم ، ومتلألىء ، ومُشرق فوق كل أرض .

وأشعتك تحيط بالأرَضين حتى نهاية جميع مخلوقاتك) .

وكان الفكر المصري القديم يملأ أرضه و بلاده هتافاً بقِيَم الحق والخير، داعياً للعدل ، والاستقامة ، والمساواة ، والرحمة ، ومُبشراً بالخلود في الدار الآخرة .

وكان ينادي الناس باسم الإله ، فيقول :

« لقد صنعتُ الرياح الأربع ، لكي يتنفس منها كل

إنسان كزميله ..

« لقد صنعتُ مياه الفيضان العظيمة ، لكي يكون للفقير فيها حق كالعظيم ..

« لقد صنعتُ كل إنسان مثل غيره من الناس .. »

وكان يقول لهم :

(إن الصدق جميل ، وقيمته خالدة)

■ □ ■

(لا تتكلمن مع إنسان كذباً ، فذلك مايمقته الله ..

(ولا تَفْصِلَنَّ قلبك عن لسانك ، حتى تكون كل طُرُقِك ناجحة) .

■ □ ■

وقبل سقراط بثلاثمائة عام ، وتحت سفوح الهملايا في شمالي البنغال ، كان فتى وسيم الطلعة ، ريَّان الشباب ، يرفل في كل ماتحفل به الدنيا من مناعم ، ومطاعم ، ومباهج ، ومسرات .. وذات يوم .. وهو يمتطي صهوة جواده ، و يزاول نزهته اليومية ، أقحم القدر على طريقه بعض نماذج من البشر ، ينطوي أصحابها على أسًى ممض فاجع .. !

ولكأنما كان هذا المشهد نداءَ الغيب لـ« جوتاما » أو « بوذا » كما سيدعى فيما بعد .

ففي أمسية ذلك اليوم ، أنفذ في هدوء وعزم ، ماأسَرَّه في نفسه ضحى .. وفي بهجة الليل ، انساب كالأنفاس الوادعة من فراشه وقصره ودنياه الباذخة ، وخرج ومعه خادمه ، حتى إذا بلغا شاطىء النهر ، قطع « بوذا » ذوائبه .. ونضا عنه ثيابه المترفة ، ومايتحلى به من لؤلؤ وذهب

وأعطاها جميعاً خادمه ، وأمره بالعودة ، بينما اتخذ سبيله إلى مناسك العابدين ، شمال جبال « الفنديا » .

وهناك شق على نفسه ، وكلفها من العبادة ما يطيق ، وما لا يطيق ، وأسلمها لصيام مرير ، وزهادة بالغة .

بيد أنه لم يلبث أن اتهم نفسه بقتل نفسه .. ومن ثم ، فقد شرع يعتدل في نسكه ، وفي إخباته .

وذات يوم .. رن في روعه نفس الصوت .. الإشارة الإلهية .. أو الوحي .. أو الإلهام .. سموه ما شئتم .

المهم أنه نداء يحس أصحابه أنه قادم من فوق .. وراء ما يحسون وما يبصرون .

وأصغى « بوذا » ثم أصغى ، وأصغى .
وأخيراً ، عاد يبث في الناس حكمته ورؤاه .
فماذا كانت هذه الحكمة ؟
هي ذي .. ولا تزيد :

ــ « أيها الناس ، أنبذوا الأنانية » .

إن « بوذا » يهتف بالإيثار وخدمة الآخرين ، وهو لا يعتبر نفسه مسئولاً عن أن يعرف كثيراً عن سر الإله .. بل هو مسئول عن أن يعرف كل شيء عن بؤس الإنسان .. !!

وهو يدعو الناس ، لينبذوا أطماعهم ، وأنانيتهم ، كي يجدوا « النرفانا » في انتظارهم .

والنرفانا ، عند بوذا هي حالة السمو والصفاء التي يجدها و يبلغها الذين يغادرون أنفسهم سعياً وراء الحكمة والحق ، والذين يتفوقون على أنانيتهم و يبذلون من ذوات أنفسهم في الخير العام .

إنكم تجعلون من ذواتكم سجوناً ضيقة مظلمة قاتلة ، حين تعكفون على أنفسكم وحدها ، وتعيشون لأنفسكم وحدها .

وإني إذ أدعوكم إلى « النرفانا » لأدعوكم في نفس اللحظة ، إلى أن تحطموا عنكم أغلالكم ــ وتغادروا سجونكم التي تحتويكم داخل ظلماتها .

عاونوا الآخرين ، وابسطوا إليهم قلوبكم بالمودة ، وأيديكم بالإيثار وبالرحمة .

بمثل هذا ، مضى بوذا يبشر ، ويدعو ، متوسلاً بالمعرفة ، وبالأمل مبشراً المصغين إليه ببلوغ ذُرَى عالمهم المنشود .. عالم النرفانا .

■ □ ■

وفي نفس الزمان .. كان هناك في الصين رائد جليل يقول :

« حياتي هي صلاتي » ..

كم هي فاتنة وقيمة ، هذه العبارة .. وإنها لتدلنا من فورها على موضوع حياة قائلها ، ودعوته .

إنه « كنفشيوس » .. حصر جهده في تجديد حياة الناس ، وضبط سلوكهم وفق مايختاره لهم من عادات ، وأعراف ، وتقاليد .

ولقد هجر وظيفته ، إلى « دار الحكمة » التي أنشأها في ولاية « لو » .

وظل ينضج فكره ، ويجمع نفسه ، ويحاول اكتشاف دوره ، حتى أفضى إلى مايريد .

وهناك خرج إلى الناس بتعاليم ، كل غرضها ، خلق الرجل « الجنتلمان » .

الرجل الأنيق النظيف ، في تصرفاته ، وفي حركاته .. في طريقة أكله ، وفي طريقة سيره ، ونومه ، وفي طريقة حديثه .. وفي حياته كلها .

وحين يزخر الوطن بهذا الطراز من أبنائه ، يصير قادراً على صبغ نفسه بالصبغة الجيدة التي يريدها له « كنفشيوس » .

وحين تنجح التجربة داخل الصين ، تصدر إلى خارجها .. وهكذا يقرّ « كنفشيوس » عيناً ويهدأ بالاً ، تجاه فوضى السلوك والنظم التي تؤرقه كثيراً ، والتي قال عنها ذات مرة :

« إن هذه الفوضى التي تعم الدنيا ، هي الشيء الذي يحتاج إلى جهودي » .

كذلك كان هناك انبياء الشرق الأدنى .. يجوبون القفار والنجوع ، هاتفين بالصلاة ، وبالبِر ، وبالتضحية .. منقَضِّين بغضبهم الصاعق على الاستغلال واحتكار الثروات .

« .. من أجل أنكم تدوسون المسكين .. وتأخذون منه هدية قمح .. بنيتم بيوتاً من حجارة منحوتة ولا تسكنون فيها ، وغرستم كروماً شهية ولا تشربون منها .

« ويل للمستريحين في صهيون .. أنتم المضطجعون على أسرَّة من العاج .. والمتمدِّدُون على الفرش ، والآكلون خرافاً من الغنم ، وعجولاً من وسط الصيرة .. الهادرون مع صوت الرَّباب ، الشاربون من كؤوس الخمر ..

« كرهت أعيادكم ، حتى تدعوا الحق يجري كالمياه ، والبر يجري كنهر دائم .. ؟ »

ولا يكاد هذا الهدير يهدأ ويكفّ ، حتى يجلجل في الأفق ، وبين

الروابي ، وفوق السفوح ، نذير جديد يهتف به « اشعياء » :

« ... ما لكم تسحقون شعبي ، وتطحنون وجوه البائسين .. ؟

« و يل للذين يصلون بيتاً ببيت ... و يقرنون حقلاً بحقل ، حتى لم يبق موضع ، فصرتم تسكنون وحدكم في شطر الأرض .. !

« و يل للذين يقضون أقضية الباطل ، وللكتبة الذين يسجلون زوراً ، ليصدوُّا الضعفاء عن الحكم ، و يسلبوا حق بائسي شعبي ... لتكون الأرامل غنيمتهم ، و ينهبوا الأيتام .. !

« يقول الرب :

« اغتسلوا .. تنقوا .. كفّوا عن فعل الشر ... تعلّموا فعل الخير ، اطلبوا الحق ، أنصفوا ، اقضوا لليتيم ، حاموا عن الأرملة » .

ثم يلقي نبوءة وأملاً فيقول :

« ها هي ذي العذراء ، تحبل وتلد ، وتعطي ابناً ، يحل فيه روح الرب .. روح الحكمة والفهم .. روح المشورة والقوة .. روح المعرفة ومخافة الرب ..

« يقضي بالعدل للمساكين ، ويحكم بالإنصاف لبائسي الأرض .

« يسكن الذئب مع الخروف ، و يربض مع الماعز . يطبعون سيوفهم سككاً ، ورماحهم مناجل ..

« لا ترفع أمّة على أمة سيفاً ، ولا يتعلمون الحرب فيما بعد » .. !

أي إنسان كان إشعياء .. ؟

وما هذه المودة الدافئة العميقة التي يكنّها للعالم وللسلام .. ؟!

هل نطمع نحن اليوم ، بل و بعد عشرات السنين ومئاتها ، في أكثر من هذا .. ؟

أن تتحول السيوف إلى عملة ..

وتتحول الرماح إلى مناجل ..

و بعبارة واحدة ، تتحول ميزانيات الحروب وسلع الموت إلى تعمير، وإنعاش ، ورخاء وسلام دائم مقيم .

هكذا ألقت الحياة سمعها لرواد من طراز لا نألفه نحن اليوم في أجيالنا .. ولعل هذا مما يباعد أحياناً ، و يفصل بيننا و بينهم بخطوط وهمية مخادعة .

لكن حين نستأني ، ونخلص في محاولتنا الفهم والمعرفة ، نجد الدور الجليل الذي قاموا به ينادينا ، و ينادي فينا كل ما نملك من قدرة على الاحترام والتبجيل .

إننا إذ نصغي اليوم لرجال من أمثال هيجل ، واسبينوزا ، وابن رشد ، والفارابي ، وسانتا يانا ، وابن سينا ، وشكسبير، والمعرِّي ، وكوبرنيكس ، وجاليليو، ونيوتن .. فإنما نفعل ذلك إكباراً لما أسدوه لعقولنا ، ولوُجداناتنا من علم ومن نور..

وهذا جميل .. ولكن ليس جميلاً أن يَفْتننا روح العصر الذي يجنح عن الغيب إلى الشهادة ، وعن النبوءة إلى التجربة .

ليس جميلاً أن يصرفنا روح العصر هذا ، عن أن نبذل احتراماً صادقاً ونصغي في تدبُّر وتعلم لأولئك الرواد الأوائل الذين أخذوا على كواهلهم المستبسلة ، تطوير الحياة الإنسانية عن طريق تطوير العقل الإنساني و بث رؤى الخير والشجاعة والصلاح في الضمير البشري .

ولقد يكون بعضهم سلك شعاباً يشق علينا اليوم أن نسير فيها ، لكنهم في الإطار العام لدعواتهم ومناهجهم ، لم يكونوا إلا رواداً أفذاذاً ، ورسلاً صادقين كباراً .

ومن جماع هتافاتهم الرشيدة المنبعثة من أوطانهم المتباعدة .. خططت تخوم وطن واحد للفضيلة وللحق ، وأيضاً للعالم الواحد الذي سينتهي حتماً إلى الفضيلة وإلى الحق فوق صعيد ذلك الوطن الواحد الكبير الظاهر.

لقد كانوا ــ أثابهم الله عنا خيراً ــ ذوي فضل كبير في جمع البشرية بذاتها ، وفي لقائها بواجباتها التي أفضت ممارستها إلى ما ظفرت به فيما بعد من تفوق عقلي ، ومن تفوق أخلاقي .

وإنا لنسأل :

أهؤلاء الذين لم يؤخذ على سلوكهم شبهة .. ولم تحُمْ حول عقولهم ظِنَّة ..

الذين عاشوا وتألموا ، وكابدوا الصعاب ، وواجهوا الخطر، من أجل الناس ، لا من أجل دنيا يصيبونها ، ولا منفعة ينالونها .. !!

والذين خرجوا من ديارهم ، ومن أنفسهم ، ومن أموالهم .. وتبتَّلوا لدعواتهم ، وأخلصوا أصدق الإخلاص لواجباتهم .. !!

هل كانوا .. وهل كان كفاحهم العظيم .. وأيامهم العاملة .. ورؤاهم المضيئة .

كل ذلك .. أكان هذراً .. أكان لغواً ، وباطلاً ..

أبداً .. أبداً .. أبداً ..

وإنه لمفروض علينا من أنفسنا السوية ، أن نحترم كفاحهم النبيل الجليل ، ونصغي للحكمة الحلوة النافعة التي لاتزال تشع بها أمّهات تعاليمهم .. والتي انطلقت ذات يوم لأول مرة من هناك .. من أثينا ،

والصين ، والهند ، وأرض الشام .. ومن قبل .. من هنا .. من مصر القديمة حيث صيغت على نسق عال وثيق ، فلسفات التوحيد ، والبعث ، والخلود ، وحيث رسمت للأخلاق ، وللسلوك مناهج قويمة ، بقدر ما هي مستقيمة .

■ □ ■

والآن ، اقتربوا .

في خشوع ، وتقوى .

إن الباب الكبير يُفتح . ليخرج منه إلينا .. إلى البشر جميعاً . أخَوان حميدان .. جاءا يلخصان دعوة الخير كلها . و يعطيانها في إطارها الديني ، تعبيرَها النهائي ..

انظروا :

ها هما ــ في ضياء باهر ــ قادمان .

عيسى .. ومحمد .

ابن الإنسان ..

ورحمة الله للعالمين .. !

■ □ ■

أما « عيسى » فسيلَخص لنا كل فلسفات المحبة ، ودياناتها ، ورُؤاها .. ثم يمنحنا إياها في تركيز حاسم .. في دعوة ميسرة .. في سلوك وديع .

وأما « محمد » فسينفُض عن الإنسان آخر أغلال التبعية ، والخضوع ، و يعلن في شمول واعٍ حقيقة التوحيد .

وهكذا تتلقى البشرية منها ، آخر دروس إعدادها ، وتتسلم وثيقة رُشْدها ، لتمضي بعد هذا في طريق الحياة شُجاعة مبصرة .

تجربة الوحي في قلبها ، ونور العقل في رأسها .

والله من قبل .. ومن بعد .. يعينها ويهديها .

■ □ ■

الفَصْلُ الثَالث

مَعــاً

عَلى طَريق الرَّبّ

في حجر أم بارّة ، بدأ المسيح ، كما بدأ محمد ، أولى ساعات الحياة ..
وفي شباب متأمل ، وَرِع ، طالع كل منهما رؤى مستقبله ، واستجلى غوامض سُبحانه ..

● وكما تلقى « المسيح » بشراه الحافزة من رجل صالح ، حين قال له وعينه عليه لا تريم :

« يجيء من هو أقوى مني » !

● كذلك ، تلقى « محمد » بشراه الحافزة من رجل صالح ، حين قال له وهو مُصْغ :

« هذا الناموس الذي أنزله الله على موسى » . !

● وفي قرى ظالمة لنفسها ، صاخبة شهواتها ، سار كل منهما عفًّا نقيًّا .

● وأمام مكايد اليهودية المتآمرة الغادرة ، وقف الرسولان يتحديان رِجسها ، و يكابدان بأسها . !

● وأريد للمسيح أن تنتهي حياته الطاهرة على صورة تُشبع الأحقاد الملعونة الملتاثة ، لخراف إسرائيل الضالة . !

● وأريد للرسول ، أن تنتهي حياته أيضاً بسبَبٍ من غدر اليهودية المتآمرة ؛ فدست امرأة يهودية السم في طعامه . !

● وقال « المسيح » حين أحاط به لؤم الكهنة وكيد الكائدين :

« إغفر لهم يا أبتاه ، لأنهم لا يعلمون ما يفعلون » .

● وقال « الرسول » ودمه يتفجر تحت قسوة الحجارة التي يُقذف بها من كل جانب :

« اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » .

أكانت هذه المشابهة عفو الصدفة ، أم هي ثمرة شيٌ يشبه القانون العام يُصنع على شاكلته هذا الطراز الجليل من الهداة .. ؟ !

إننا نريد أن نقترب من محمد ، ومن المسيح أخيه ، ونريد أن نبصر الرؤى الصحيحة التي رأيا بها مستقبل الإنسان ، ومستقبل الحياة . فإنهما في هذا لَنَظيران مثلما هما نظيران في شدة ولائهما للإنسان وللحياة .

والآن ، علينا أن نعرف ، ماذا كانت البيئة التي تنتظر كلا منهما ، وتتعجله المجئ .. عسى هذا أن يهدينا إلى حاجة عصرنا لهما ، ولروح الخير الذي تعبا في بَثِّه وإذاعته .

■ □ ■

فلسطين ، أرض تحمل شعباً متعدد القَسَمات ، يعاني أهلها حقداً كثيراً على الغزاة الذين يسومونهم سوء العذاب .. وهم لهذا ، يهربون من الواقع الممض إلى رؤى غَدٍ مرقوب ، حيث « يجئ ملك اليهود ومخلصهم » !!

إن جنود روما ، تشوي الأبشار بسياط كاوية ، والخوذات اللامعة المتكبرة تقذف بالرعب في أفئدة القطيع .. والضرائب الفادحة المبهظة تجبى من ذوي الخصاصة والكادحين ، لكي ترفع إلى السيد الماجد « قيصر » المتربع على عرشه الباذخ في « روما » !!

والجاثون بين يدي هذا الواقع الأليم ، أبناء شعب تشرَّد في الارض وفي القرون ، وعانى من التمزُّق والمحق ، ما جعله يتلمس في شوق بالغ قدوم من يخلّصه .

كذلك عانى من تعدد الأسياد ، وتعدد الغزاة الذين أنْقَضُوا ظهره ، ما جعله يهفو إلى عقيدة التوحيد ، ويهتف بها .

ترى ، إن جاءه مخلصه يؤمن به ، أم يعدُّ له صليباً كبيراً .. ؟ !

وإن دُعي إلى عبادة الله الأحد، يطيع؟! أم يُشرك به الذهب، والمال..؟!

لم تكن تلك أحاسيس اليهود القابعين في بعض فلسطين وحدهم.. بل والمبذورين في بقاع كثيرة من الأرض.

هناك في أسبانيا، وفي أفريقيا، وفي جوانب البحر الأبيض المتوسط وفي جنوب روسيا، وبعض بلاد الإمبراطورية الرومانية.

غير أن المقيمين منهم في «أورشليم» وما حولها كانوا أكثر معاناة للألم وأكثر تعلقاً بالأمل. وأيضاً أكثر اضطراباً وبلبلة وإباقاً.

كان «المجتمع» هناك ـ إن جاز هذا التعبير ـ نهباً لتقاليد خالطها الكثير من العفن، والنفاق، والنفعية.. مما جعل الأنبياء يكثرون وتكاد صيحاتهم المنذرة، تزحم جو السماء.

كان اليهود الفرّيسيون يقفون حراساً عنيدين على طقوس شكلية خالية من الروح، متجاهلين لُباب الشريعة، وصميمها.

فالسبت ـ مثلاً ـ مُقدّسة فيه الراحة، بل البطالة؛ حتى لقد ترك آباؤهم ذات يوم «أورشليم» تسقط في يد أحد الغزاة السّلوقيين لأنه هاجمها يوم السبت، وهم يوم السبت لا يعملون، حتى حين يكون هذا العمل دفاعاً واجباً عن حياتهم وأنفسهم..!!

وهم أيضاً ـ الفرّيسيون ـ يهتمون أعظم الاهتمام بغسل الأيدي قبل الطعام، لا من أجل النظافة، بل لمجرد أنه طقس ديني.. ثم لا يهتمون بمأتى هذا الطعام، حلالاً كان أو حراماً!!

وطهارة القلوب لا تنال من اهتمامهم معشار ماتناله طهارة الأيدي، وعما قليل سنبصر خبث صدورهم وطواياهم وهم يحاربون المسيح ويفتنّون في الكيد له.

واليهود هناك ، يمنحون أنفسهم من الامتياز ما يجعلهم فوق البشر ، و يرون أنفسهم « شعب الله المختار » ! و يزعمون أن الله قد وعد أباهم « إبراهيم » مُلكاً عظيماً ، يحكمون من خلاله جميع الأرض وجميع من عليها !!

ثم هم يعيشون في دائرة مغلقة ، منطو ية ، متزمتة .

وهم في أورشليم يُشكلون « مصرفاً » جشعاً ، يؤله المال ، ويحتكر الثروة ، و يضرب الفقراء والمعوز ين بسياط الاستغلال ، والربا ، والبغي . لا يعرفون عن المقدسات إلا أنها السبيل لحظوظ أوفى من الكسب الحرام ، وإنهم ليبلغون في غرورهم الصفيق الحد الذي يقولون عنده : « إن الله فقير، ونحن أغنياء » !!

وهم جماعة تفكر بمخاوفها ، وبحرصها ، و بأنانيتها ، فيجئ تفكيرها من الانحراف ، والقسوة ، بحيث يبدو أصحابه وكأنهم ليسوا على الإطلاق بشراً .

لقد قتلوا أنبياءهم ، وكلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا ففر يقاً كَذّبوا ، وفر يقاً يقتلون .

وإنهم لأساتذة في فن الجريمة .. وفي أعناقهم وأيديهم بقع كبيرة من دم « زكر يا » ومن دم « يحيى » ومن دماء زاكية لأنبياء وشهداء كثير ين !

وهم ـــ وإن تظاهروا بالغيرة على الشر يعة ـــ لا يضعون شيئاً من حقائقها موضع التنفيذ .

والذي يعنيهم من الدين كله ، شيء واحد : هو مُلكهم المنتظر حيث تجد نزواتهم الجامحة في السيطرة وفي الاقتناء فرصة سعيدة .

وإذا كانوا مشغوفين بمجئ « المخلّص » ، فليس لكي يخلصهم من

خطاياهم ، ويهدي الى الله نفوسهم وسلوكهم .. وإنما ليضاعف الثروة في جيوبهم !!

من أجل هذا ، رحّبوا بالمسيح بعض الوقت فور ظهوره ، فلما تبين لهم أنه لن يكون « السمسار» الذي يسلمهم الصفقة المنتظرة ، والملك المرقوب هبُّوا لعداوته وتواصَوْا على حربه !

وأخيراً ، فإن معظم القيم السامية ــ إن لم يكن جميعها ــ قد اختفى من هذه البيئة وكان للكُهَّان فضل كبير في هذا ..

وفي وحل الجشع ، وإلى حضيض الجريمة أخلد الناس الذين كانوا يومئذ هناك .

ولو أن قوة تتمتع بما تشاء من ذكاء ومقدرة ، أرادت أن تتقدم لإصلاح هذه الجماعة الضالة ، والتي لم تكن رغم مساوئها الكثيرة ، إلا نموذجاً لكثيرين من سكان العالم أيامئذ ، فماذا كانت صانعة ؟

● تنشئ الجامعات ، وتملؤها بالأساتذة والمربين ، لتلقن في مدرجاتها هذه الخراف الضالة أسلوب الحياة الفاضلة ؟

● تتوسل بأجهزة الإذاعة ، والصحافة ، والنشر ؟

لم يكن شيء من ذلك قد وجد بعد ..

● إذن تصبهم في قوالب سحرية ؛ يدخل أحدهم من أعلاها شريراً فاسداً ، ويهبط من أدناها قديساً طاهراً ؟ !

ولا هذا ..

لقد اصطنعت السماء يومئذ أنجع الوسائل وأجداها ، فكان المعلمون الصالحون الذين يبينون لهم الخير والشر ، ويميزُون الخبيث من الطيب ، و يقودونهم بكلماتهم الحارّة الصادقة ، و بسلوكهم الفاضل الباهر الى المحبة والفضيلة ، و يُشكلون المجتمع على صورة تمنحه قابلية التطور الصالح ، والتقدم السديد .

هذا كان عمل الأنبياء والمرسلين ، قبل أن تخالطه إضافات الأتباع ، وتحريف المغرضين .

وهذا ما سيحاوله المسيح حين يجئ .

■ □ ■

ولكن ، قبل أن نشهد مجيئه ، يحسن أن نلقي نظرة أخرى على العالم كله ، فليس يكفي أن نعرف ماذا كانت « أورشليم » قبيل ظهوره ، دون أن نعرف ماذا كانت كذلك ، وفي نفس الزمان ، طبيعة المرحلة التاريخية للعالم كله .

فالمسيح ، ومثله الرسول ، لم يجيئا ليوقدا شموعهما في أورشليم وفي مكة وحدهما ، بل جاءا ليوقدا شموعهما للعالم كله .

ولقد كان على وُجدان بهذه الحقيقة .

قال المسيح :

« جئت لأخلص العالم » .

قال الرسول :

« إن الله أرسلني للناس كافة .. وأرسلني رحمة للعالمين » .

ولقد حدث هذا فعلاً ولم تبق دعوتها داخل القرى الصغيرة ، بل تفتحت لها أبواب القارات الكبيرة ، ولا تزال الديانتان ، المسيحية والاسلام ، تغمران الأرض .

وهذا شئ طبيعي فالأفكار قوة على النفاذ والزحف أكثر مما للجيوش نفسها .. سيا تلك الأفكار الصادقة الكبيرة التي تحمل من أماني البشر ،

وتحقق من احتياجاتهم ما هم إليه مشوقون .

فما الوضع الذي كان يسود العالم يومذاك ؟؟

كان الشرق الأقصى يمارس فلسفته الخاصة ، وتتطور النظم في بلاده تطوراً عنيفاً تارة ، وهادئاً تارة أخرى .

ولكن ظاهرة تثير الانتباه حقاً ، كانت أيامئذ تعلن عن نفسها في ذلك الركن الأقصى من الأرض .

ففي الصين التي كانت تعيش وراء سورها البالغ طوله ألفاً وخمسمائة ميل .. والتي كانت قد وحّدت ولاياتها الكثيرة المتفرقة تحت لواء حكومة مركزية واحدة .

الصين تلك ، كانت تمارس تجربة هائلة بدأها الإمبراطور « وو ـ دى » ثم أعاد تطبيقها بعد نكسة طارئة الإمبراطور « وانج مانج » .

وتنتظم هذه التجربة : إلغاء الرق وتأميم الأرض الزراعية تأميماً كاملاً شاملاً ، وتأميم الملح ، والحديد والمناجم ، وتثبيت الأسعار !

أما في الشرق الأدنى ، وأوروبا ، فقد كان هناك استعمار وبيل ، وَرِقّ بشع !

فالإمبراطورية الرومانية ، على الرغم من محنتها ، وتمزقاتها الداخلية ، قابضة على أعناق رعاياها ، في بلاد غالة ، حيث شمالي إيطاليا ، وجنوبي فرنسا ، وفي بريطانيا ، وفي النمسا ، والمجر ، ورومانيا ، ويوغسلافيا ، وبلغاريا ..

وفي إسبانيا ، وشمال أفريقيا ..
وفي مصر ، والشام ..
وفي أقطار أخرى من الأرض ، سيطرت عليها ..

وكان سلوك روما مع الخاضعين لها عجيباً ، فهي تُصدّر إليهم قيصر ،

وتأخذ منهم أرزاقهم ، وما تنتج بلادهم من ثروة وخير.. !!

ولا بأس لدى روما أن تسمح لبعض المقاطعات بإرسال ممثلين لها في مجلس الشيوخ الروماني ، كما حدث حين سمحت بهذا لبعض من أشراف فرنسا ..

تماماً ، كما تفعل فرنسا اليوم مع الجزائر إذ تعتبرها مقاطعة فرنسية نظير التصدق عليها بإعطائها حق التمثيل في جمعيتها الوطنية (١) .. !!

ولم يكن الاستعمار الروماني ممثلاً في جيوش « روما » وحدها .. بل كان يؤازر القوة والسلاح ، فريق من الاحتكاريين العتاة ..

فقبل ميلاد المسيح بستة وأربعين عاماً ، لا غير، كان للاحتكار الروماني في الأندلس وحدها ، ثلاثمائة مصرف .. تنزح من أسبانيا : ذهبها ، وقصديرها ، ونحاسها ، وفضتها ، وحديدها ..

كما كان الاحتكار الروماني ، يعاونه الاستعمار الممثل في الحكومة والجيش ، يسيطر عن طريق قادس على تجارة المحيط الأطلسي مع غربي أفريقية ، وفرنسا ، وبريطانيا ..

وفي مراحل مختلفة من سيطرة « روما » كان استعمارها يتسم بقسوة لافحة غليظة .

فمثلاً ، كان الرومان يصطادون أهل « كورسكا » بالكلاب ، ليبيعوهم عبيداً .. !

وكانت الضرائب ، تفرض على الأرض ، وعلى الأملاك ، وعلى الحيوانات، وعلى العبيد .. !

صحيح أن الاستعمار الروماني ، كان ينشد العمران ، و يقيم المشاريع العظيمة في كثير من مستعمراته تلك ..

(١) كتب هذا قبل أن تظفر الجزائر باستقلالها .

ولكنه كان يفعل هذا ، ليزداد دخله منها .. أي أنه كان يُسمن البقرة ، لتدرَّ له مزيداً من الحليب .. !

ففي شمالي أفريقيا — مثلاً — أقام السدود العالية لإختزان الزائد من المياه .. وغرس أشجار الفاكهة والزيتون ، حتى قيل إن المسافر كان يقطع الطريق من طرابلس إلى طنجة تحت ظلال أشجار الزيتون ..

ولكن لمن كانت هذه الخيرات تُجبَى وتحمل .. ؟؟

لسادة روما وشعبها ..

أما أصحاب البلاد الحقيقيون ، فمجرد فَعَلة وعبيد .. !

ولقد أراد « أغسطس قيصر » ذات يوم أن يكافئ بعض ضباطه وجنوده على إخلاصهم له فأقطعهم « قرطاحنة » كلها .. وعاشوا هناك سادة وأشرافاً .. بينما تحول أهلها طبقة دنيا من الرقيق ..

■ □ ■

كانت فلسطين ، إحدى مستعمرات هذه الإمبراطورية ، يقطنها مليونان ونصف مليون من الناس ، يعيش الوثنيون منهم في مدنها الساحلية .. ويتركز اليهود في المدن الداخلية .. ويعاني شعبها ، لا سيما اليهود ، نزاعاً عنصرياً ، واضطراباً سياسياً .

فبين أهل يهوذا ، والسامريين ، وبين الصدوقيين ، والفرّيسيين ، عداوات دائمة الاستعار .. ولكن مقتهم لروما يجمع بين قلوبهم المشتتة .

وعلى صفحة هذه البلاد التي سيرفع المسيح فيها صوته بعد قليل ، تنعكس مساوىء الاستعمار الروماني وسلوكه ..

فالاستبداد السياسي ، رجيم ، حتى إنه في معركة واحدة في إبان شباب المسيح ، أي قبل جهره بدعوته ، قاد « قارس » حاكم سوريا

الروماني حملة تأديبية على بعض مدن فلسطين ، فهدم مئات البلدان ، وصلب ألفين من سكانها ، و باع ثلاثين ألفاً في أسواق الرقيق .

ومن هنا توهجت آمال كثيرين ، في مجئ مسيح مخلص ملك يؤسس مملكة مستقلة ، تدفع ضغط روما وتَسلُّطها ..

والظلم الاقتصادي جاثم يومئذ ، وقبلئذ .. فالضرائب فادحة ، وجُبَاتُهَا لحساب الرومان لا يرحمون ، وكهنة اليهود ، وتجارهم لا يقلون عن الآخرين جشعاً و بغياً ..

ومن هنا ، توهجت آمال قوم آخرين في مسيح يلغي التجارة ، والمِلكية الفردية ، ويحقق مساواة كاملة بين الناس .. !!

كان أصحاب هذا الأمل ، جماعة تسمى « الأسينية » أو « الآزيون » .

كان أعضاؤها يعملون في مزرعة جماعية ، غربي البحر الميت .. ويجمعون محاصيلها ، وكل مكاسبهم في بيت مال مشترك .. ومحظور على أيّ منهم أن يمتلك لنفسه بيتاً ، أو فراشاً ..

وكانوا يؤمنون بالسلام ، و يطردون من صفوفهم كل من يصنع ، أو يساهم في صنع شئ من أدوات الحرب .. !

ولقد حدث لهم — كما يحكي الكاهن يوسفوس — في تاريخه ، وكما ينقل عنه ديورانت في قصة الحضارة — أن عُذِّبوا ، وحُرِّقوا ، وقطعت أجسامهم . ليتخلوا عن عقيدتهم وسلوكهم ، فأبوا ، وجادوا بأرواحهم مبتهجين .. !!

هذا رسم بياني ؛ للموقف كله ، في العالم الذي تسود معظمه الأنانية من جانب ، والمسكنة من جانب آخر .. وفي الأرض التي سيقدر لها أن تستقبل المسيح القادم .

ترى . ماذا سيصنع به يهودها .. الذين طالما انتظروه .. ؟ !

■ □ ■

فى هذه الدنيا التي لمحناها ، شهد « بيت لحم » ذات صباح نضير مولد طفل .

لم يكن أحد الذين شهدوا ميلاده ، بقادر على استجلاء المستقبل العظيم لهذا الوليد النائم في مهدٍ متناه في البساطة ..

ومع هذا ، فلن يغيب طويلاً شروق هذا المستقبل ، ولسوف يكبر الطفل ، و يشبّ وتهاجر به أمه خوفاً عليه ، ثم يعود فيستمع ليوحنا المعمدان ، و يلقف منه الشرارة التي ستطلق قواه العارمة من مَكامنها ، ويمضي هادراً ، جيّشاً . يحدث الناس في دَعَة وحلم ما داموا يصغون إليه وُدَعاء مسالمين .

ثم يجلجل فيهم كالنذير ــ يا أولاد الأفاعي ــ حين يلمح في عيونهم الماكرة نوايا الغدر والكيد .

ولسوف تبدأ المسيحية ــ في تقديرنا ــ من ساعة اللقاء العظيم بين « يوحنا » ، و « المسيح »(١) .

فمن كان الذي شهد ذلك اللقاء خرجت القافلة أول ما خرجت إلى بلاد الناصريين . ثم إلى ما حولها ، ثم الى روما الجاثية في ابتهال ضارع ، ثم إلى أقطار شتى في الدنيا ، والتاريخ .

فإلى هناك لنبصر مشهد الشروق ..

■ □ ■

---

(١) أو لعلها تبدأ بـ « أشعياء » وثورته المسالمة من أجل العدالة ، والفضيلة والسلام .

نحـن الآن ، على ضفـاف الأردن .. وهـذا الـرجل المتبتل ، الأشعث الأغبر، الـذي يـرتـدي ثوباً من الشعر، و يعيش على عسل النحل ، وعلى الجراد الجاف ، هو « يوحنا » أو « يحيى » عليه السلام ..

إنـه عـابـد أوّاب ، لـيـس معه من الدنيا شيّ .. وإنه ليدعو الناس إلى الـتـوبـة ، و يُعمّدهم بماء النهر كي يساعدهم على تطهير قلوبهم . وإنّه أيضاً ليُـنـدّد فـي عـنـف شـديد بالنفاق .. و بالكهنة الذين « يغسلون أيديهم ، وقلوبهم ملآنة دماً » ..

ملآنة بالشر و بالحقد و بالأنانية .. !!

وهـو، وإن يـكـن في عزلته تلك ، بعيداً عن الواقع السيء الذي تموج به « أورشليم » إلا أنه بهذا الواقع جِدُّ خبير..

ففي « أورشليم » هذه .. تلقى دروسه ، وعاش من عمره بعضه ، بين الكهان ، والفرّيسيين ، والتجار، وجنود روما وعملائها ..

وهو شديد الخوف من الله ، ومن عقابه .. وإنه لا ينسى أن هذه الرقعة من الأرض ، التي يعيش فوقها ، قد ازدهرت عليها ذات يوم « سدوم » ثم خسف بها ، و بأهلها ، حتى لم يبق منها إلا عبرتها القاسية الرهيبة ..

وهـو يـسـتـعـيـد ذكـر يـات الـقـرون الـتي كانت لها على اليهود وطأة شـديـدة . فـيـبصر وراء كـل ضـر بـة محقـهـم بها القدر؛ تِلالاً من الخطايا ارتكبوها فأخذت الرجفة صالحهم ، وطالحهم .

أفـيـسـكـت عما يـرى مـن جرائم وسيئات ، أم يصدع بما في نفسه من حديث نافع مضيء ..

لكن « أورشليم » على بعد عشرة أميال منه .

فهل يتركه طغاتها يتكلم حين يأتيهم نبأه ، أم يسوقونه الى نفس المصير الذي طالما ساقوا إليه أنبياء وقديسين ..

إن طبيعة الإنسان ، هى الإنسان نفسه . وطبيعة « يوحنا » بكل ما تحمل من جيشان ، وسكون .. من إقدام وخشية .. من تطلُّع وعزلة .. من نُسُك وتبتل ؛ وغيرة على الإنسان ..

هذه الطبيعة ، هي يوحنا . وإنه ليؤثر في الآخرين بنقل طبيعته إليهم .

هكذا نحن البشر .. تأثيرنا في الآخرين ، يعني أننا نفذنا إليهم بالجزء الأقوى من طبيعتنا ..

وقد يكون الذي يتلقى التأثير، أقوى من المؤثر ذاته .. مع هذا ، يظل للتأثير نفعه ، وضرورته .. لأن يكون بمثابة « إشارة البدء والانطلاق » . ورفع الغطاء عن القوة الحبيسة المنتظرة ..

وشيء يشبه هذا ، سوف يحدث بين يوحنا ، والمسيح .

لم يطل تفكير « يوحنا » فاختار طريقه ، وواجه مسئوليته . ووسط حشد من الناس وقف يذيع أولى كلماته :

ـــ « توبوا .. لأنه قد اقترب ملكوت السموات » .. !!

وطار بين البلاد نبأه ، وكثر سعي الوافدة إليه .

وذات يوم ، والمسيح عاكف على شبابه الطاهر، يجلوه ، ويحسن تنشئته ورعايته ، التقى بقافلة من قريته ، أصحابها عائدون من شاطئ الأردن ذاك ..

و يقترب منهم في شوق و يسألهم :

ـــ هل رأيتموه .. ؟

ـــ نعم ..

ـــ ماذا كان يقول للناس ؟

ــ سمعناه يقول :

« من له ثوبان فليعط من ليس له ، ومن له طعام فليفعل هكذا » . !!

وتتفتّح روح المسيح ، و يتهلل وجهه .. ويحس كأنها كلماته .. كأنها مبادئه .. أو كأنه أولى الناس بتقبلها ، وحمايتها ، وتحويلها إلى سلوك ونهج .

« من له ثوبان ، فليعط من ليس له » ..

ما أكثر ما فيها من عذوبة ، ومن رحمة ، ومن عدل ..

وما أحرّاها بالتضحية في سبيل حمل الناس عليها ، سيما أولئك الشريرين القابعين في « أورشليم » المخفين وراء أرديتهم الفضفاضة ، نفوساً تفوق في اللؤم ، اللؤم نفسه . وتكاد الجريمة حين تراها تصيح : مرحباً بوطني .. !

وعاد يسألهم :

وكيف يستقبل الناس ؟

ويجيبونه :

إنه يفتح قلبه لهم جميعاً ، حتى العشارين لا يردهم ، بل يعمدهم و يعظهم ، وحتى الجنود ، لقد سألوه عما يصنعون ليرضوا الرب ، فأجابهم :

« لا تظلموا أحداً ..

« ولا تَشوُا بأحد » .

وازدادت روح المسيح إشراقاً وَوَجْداً ، وأوى إلى نفسه يفكر ، و يتأمل ..

إن الرُؤى العظيمة الباسلة التي يحسها في أعماقه قد انطلقت صادحة على ضفاف الأردن ، فلماذا لا يكون هناك في استقبالها ؟

ومع أول قافلة ، شدَّ رحاله .

وهنـاك ، بين الصـفوف المصغية إلى كلمات يوحنا ، أخذ مكانه في خشوع وتقوى ..

كان يوحنا يقول :

« أنا صوتٌ صارخٌ في البَرِّيّة ..
« قَوِّموا طريق الرب » .

وشق السكونَ سؤال وجه إليه :
ـــ هل أنت المسيح الذي بُشِّر بمجيئه !
ويجلجل صوته بإجابة سريعة حاسمة :

« لست أنا المسيح ..
أنا أعمدكم بماء ، ولكن يأتي من هو أقوى مني ، من لست أهلاً لأن أحل سيور حذائه » .

ثم يفتح عينيه جيداً على الوجوه الباسرة ، وعلى اللحى الطويلة المتآمرة في أصـداغ الـكـهـنـة الذين جاءوا ليتآمروا به ، وإذ يبصر فوقها تحركات أحقاد تتحفز وسخافات تتنادى ، يبددها بصيحة زاجرة :

ـــ يا أولاد الأفاعي !!
و ينبهر المسيح بهذه القوة المتحدية .

وحين يـنـزل يـوحنا إلى الماء ليعمد الطالبين ، يتقدم المسيح إليه راجياً تعميده ، و يلفه يوحنا بنظرة غريبة ، ثم يهمس في سمعه :

« أنا محتاج أن أتعمَّد منك ، وأنت تأتي إليَّ » . ؟؟

ويخـتلج رأس المسيح متسائلاً ، وتلتمع أمامه مرة أخرى وسط هالة من الـضوء الدّال الكاشف ، كلمات « يوحنا » التي صدح بها منذ قريب : « يأتي من هو أقوى مني » .

ولكن الحوادث تترى في مفاجآت عجيبة ، وفي بلبلة موجعة ..

فجنود « هيرودس » في خُوَذهم المستكبرة ، وفي « بطونهم » المنتفخة بالحرام ، يدهمون المكان الآمن الوديع ، و يعتقلون « يوحنا » ثم يذهبون به ..

و يعود المسيح إلى « الناصرة » بروح غير الذي غادرها به .. يعود وداخل إهابه إنسان آخر، لا تشغله حرفته التي يكسب منها عيشه ، فـ« ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان » ، وإنما يشغله ذلك الدور الجديد الذي يحس أنه دُعي لأدائه ..

ونفس الصوت الذي سيسمعه « محمد » بعد ستمائة عام يرن في روعه رنين الصدق هاتفاً :

« يا أيها المدثر، قم فأنذر» ...

نفس الصوت ، يرن الآن في روع المسيح :

« أنت ابني الحبيب الذي به سُرِرت ..

للرب إلهك تسجد ، وإياه وحده تعبد » ..

ليس هناك ذرة من ريب في صدق الحس الذى تلقى به محمد كلمات ربه .

ولا ذرة من ريب في صدق الحس الذي تلقى به المسيح نداء ربه .

فليس في حياتيهما أثر — أى أثر — لتصنع أو ادّعاء .

حتى كلمة « ابني » في عبارة المسيح لم تزغ عن مكانها ، فنحن جميعاً أبناء الله ، بمعنى أننا خلقه .. وأبوته لنا ، لا تعنى تلك الأبوة الوالدة التي تعرفها « دفاتر المواليد » ، بل هي أبوّة الخالق الأول ، والأعظم .

وعما قريب سنلتقي بالرسول وهو يستعمل نفس التعبير، فيقول :

« الخلق عيال الله ..
وأحب الناس إلى الله أنفعهم لعياله » .

بل سنسمعه يقول :

« يقول الله عز وجل : لا تسبّوا الدهر، فأنا الدهر» .

فهل الله حقاً هو الدهر، بالمفهوم الحرفي لكلمة الدهر.. ؟ !

لا .. وإنما هو سبحانه ، الدهر.. بمعنى أنه القوة الكبرى المسيطرة والمبثوثة مشيئتها في الزمان والمكان .. والتي ينبثق من خلال رحمتها ، وقدرتها أسباب الحياة وطاقاتها .

وكذلك وصف الله بالأبوة ، فهو القلب الكبير الذي يسعنا بحنانه وببره .

أجل ؛ جميعاً .. صالحنا ، وفاسدنا ، قوينا ، وضعيفنا .

وفيما وراء هذا ، نلتقي بالمسيح ، ينعت نفسه كثيراً بأنه « ابن الإنسان» .

بَيْدَ أن « ابن الإنسان » هذا ، لم يعرف فؤاده الذكي أية تخوم فاصلة بين الأب ، والرب ..

لقد تخطّى حدود النسب الأرضي ، وجاوزها جميعاً .

حتى أمه ، حين يقال له ذات يوم : إنها بالباب تريدك ، يجيب : من هي أمي ، ومن هم إخوتي .. ؟؟

« إخوتي وأمي هم من يعملون مشيئة الرب » !!

هذا هو ابن الإنسان ، الذي نعت الله بأنه أبوه ..

والذي قال : « كل غرس لم يغرسه أبي السماوي يُقلع » .

إنه الآن أمام الله ؛ وجهاً لوجه ـ إن جاز هذا التعبير ـ وجميع الاحساب والأنساب ، والأسباب ، تزّاوَر وتختفي ، وتذهب بعيداً ، بعيداً .. بعيداً ..

لأن القبس الإلهي ، المعطَى لكل إنسان ، قد نما في المسيح ، وتفوق وانتشر ، حتى ملأ وجوده كله ، ولم يَعُد يبصر في ضيائه الباهر سواه .. حتى أمه التي ولدته ، وحتى إخوته .

ارتفعت روابطه بهم إلى مستويات عالية من الواجبات العامة الكبيرة التي تجعل من جميع البشر إخوة له ، ومن جميع الأمهات أمّاً .. ومن وراء هذا كله ،أبوه السماوي .. ربه الذي أرسله ، كما قال هو ليجبر منكسري القلوب ، و يطلق الأسارى من القيود !!

لقد أسهبنا قليلاً في هذه المسألة ، ولم يكن بد ، وقد جاءت مناسبتها ، من أن نسهب ونفيض .

والآن نعود الى حديثنا الأول ..

إلى يوحنا ..

لقد اعتقلته جنود روما ، جنود « هيرودوس » إلى حيث لا يستطيع بعد اليوم أن يلتقي بالناس ، ويهدم في أنفسهم أوثان الطاعة لروما ، وقيصرها ، ولكهنة أورشليم .

أجل .. إلى السجن ، حيث لا يلتقي بعد بالقلوب الظامئة الى كلمة الله ولا بالنفوس الساخطة على الظلم والكذب .

وخلت ساحة النضال من بطلها المقتحم .. فهل سيطول بها العهد حتى توحش .. ؟؟

كلا ، لقد قال يوحنا قبل أن يمضي : « يجئ من هو أقوى مني » .

فمن كان يجد فى نفسه اليقين بأنه هو، فليتقدم ..

وكان هناك واحد يملأ اليقين رُوعه ووعيه ..

وكان هو المسيح ..

أو قد دقت الساعة ..

أجل ، يا ابن الإنسان فتقدم ..

وفوق مكان عال ، في بيت لحم ، وقف يبلغ الخافقين حوله أولى كلمات الحق :

« قد كمل الزمان ..

« واقترب ملكوت الله ..

« فتوبوا ..

« وآمنوا بالبشرى » ..

ولندعه يتم حديثه العذب القويم ، ريثما نمضي في رحلة سريعة إلى مكة لنشهد مجيئ أخ له كريم ، ونلتقي بأولى سملت الزمالة بين محمد والمسيح ...

■ □ ■

عَلاَم يدلُّ هذا الرجل الصالح ، الزاهد ، الأوَّاب ، الهائم بين الصحارى والجبال ، الضارع إلى الله في نجوى دائبة :

أنفي لك اللهمَّ عانٍ رَاغِمُ

مَهما تُجَشِّمْني فأني جاشِمُ

إنه « زيد بن عمرو بن نفيل » يغمره الإحساس بنبوة آتية ، و يود لو يكون صاحبها ، يختاره الله لها .. فيحظى بكل ما في هذا الاختيار من شرف ، و يؤدي كل مايقتضيه من حق .

وإنه ليجوب الأرض وحيداً ، مليحّاً في دعائه ، ممعناً في رجائه ، مبتهلاً إلى ربه سبحانه ، أن يعطيه إحدى الحُسنَيَيْن :

يكون هو النبي المختار..
أو يجمعه الله به إذا كان الاختيار من حظ سواه..

كان «زيد» هذا، كما نعته المؤرخون، راجح العقل، قوي الخلق، ذكي الفؤاد، ثاقب البصيرة.

وهو في إحساسه العميق بمقدم نبي، لم يكن منجماً، ولا عرّافاً، بل كان رجلاً مفتوح العينين على واقع البيئة، وروح العصر، فأدرك وجود حاجة تاريخية ملحّة، تنادي مصلحاً.. منقذاً.. رسولاً..

وبلغ إحساسه بحتمية هذا المجيء، حداً عيّن له ميقات ظهوره.. اليوم.. أو غداً.. ولن يتأخر إلى بعد غد على الإطلاق. !!!

إن هذا الحسَّ الصادق لابن نفيل، يشكل ويمثل ضرورة تاريخية كانت تبشر فعلاً بمجيء محمد..

وهكذا، وبعد ميلاد المسيح بقرابة «خمسمائة وسبعين عاماً» جاء في رحلة عظيمة إلى الحياة، واحد من أعظم أبنائها شأناً، وأكثرهم براً، وأهداهم سبيلاً..

وكما لمحنا البيئة الخاصة والعامة، التي كانت حين جاء المسيح.. نريد أيضاً أن نلمح البيئة الخاصة والعامة، التي كانت، حين جاء محمد عليهما صلوات الله، وبركاته، وسلامه.

● كان العرب مبثوثين في جزيرة مترامية. يزخر شمالها، مثلما يزخر جنوبها بالفضاء الواسع، وبالصحراء العارية. وتقوم القبائل بالبحث الدائب عن لقمتها، وعلى حراسة عاداتها، وعباداتها.. وتسير بهم الحياة بطيئة، كخُطى الأغنام في مشيها اليائس وراء عشب تأكله وترعاه..!

● ولكن هناك قرى كبيرة تتجمع فيها مراكز الحياة القَبَلية.. مثل مكة، والمدينة، والطائف، في شمال الجزيرة.

وفي وسط مكة ، التي سينعتها القرآن حين ينزل ، بأم القرى يقوم بناء متواضع ، لكنه هائل التأثير، مقدس المكانة .

إنها الكعبة ..

● وفي الكعبة مزدحم من الأصنام الطارئة ، فما كانت كذلك في أيامها الأولى ..

أما اليوم ، فلكل قبيلة ، أو مجموعة من القبائل صنمها المعبود .

يغدو الناس ، و يروحون . ثم ينتهي تطوافهم دوماً الى هذه الأصنام يبثونها حاجاتهم ، ومخاوفهم ، وآمالهم ..

● في جنوب الجزيرة ، أو شبه الجزيرة ، يحكم الفرس الذين ناصروا ملوك حِمْيَر على الأحباش ، و يتخذون من اليمن قاعدة لحكم سافر تارة ، ومقنَّع أخرى .. ولسوف يظل هناك حتى يبطش أتباع الرسول المقبل بأمبراطورية الفرس كلها .

● وفي الشمال ، حيث الحجاز، يسيطر أشراف القبائل ، ورؤساء العائلات والعشائر، يصلهم الساحل الغربي بمرافئ البحر الأحمر وتجارته . و ينداح الطريق أمام قوافلهم وتجارتهم حتى بلاد الشام ..

● وهذا الشعب الصبور، شديد التعلُّق بحريته ، فذُّ الولاء لها ، لا يرضخ لأى حكم خارجي . و يؤثر شظف الصحراء ، ولأواءها ، لأن صعيدها المترامي ، وآفاقها البعيدة ، وحياتها المنطلقة .. كل هذا ، يغذي في نفسه الطامحة ، حنينها الأبدي إلى مزيد من الحرية والانطلاق .

ولكنه ، على الرغم من هذا ــ وإنه لعجيب ــ يخضع للأصنام خضوعاً مذلاً . فأمام الحجر الصامت العاجز، ينيخ كبرياءه واعتداده ، و يسلم أمره ومصيره .. و يبتهل ، و يناجي ، و يرجو، ويخاف .. !!!

● ثم إنه على الرغم من بداوته ، يمارس حياة أدبية رفيعة .

فالشعراء يملأون فجاجه .. وللشعر، كما للنثر أعياد ومواسم تشد إليها الرحال . وليس هذا فحسب .. فالإنتاج الأدبي المتفوق يُجَاز و يكافأ ، بأن يرفع إلى أقدس مكان ، فيعلق بأستار الكعبة ، حتى ولو كان هذا الانتاج يصور مغامرة حب ، أو ليلة حمراء .. !

وعن طريق القصة المنظومة ، كان يؤرخ لنفسه ؛ و يعبر عن تجاربه تعبيراً فنياً عجيباً . !

● وفي طرقات مكة ، كنت تسمع صهيل السادة وثُغاء العبيد ... وتلتقي بالطائفين حول البيت العتيق ، و بالمخمورين الذين أضناهم طول السهر في غرف العاهرات .. وقلما تبصر شعائر إيمان صحيح عاقل .. فإذا غادرنا مكة إلى العالم ، وجدنا شيئاً قريباً مما كان ، قبيل ظهور المسيح .

● في الشرق الأقصى ، تفيق اليابان على صوت المدنية القادمة إليها من الصين ، وكوريا ، والبوذية ..

● وفي الهند ، تمزقات داخلية ، وحروب أو فتن أهلية متساوقة ..

● والصين ، مشغولة باسترداد الأقاليم المجاورة التي خرجت عليها بعد سقوط أسرة هان ، ثم لا تلبث أن تستقبل عصراً من السلام ، والرخاء جدّ عجيب . !

ومراكبها المترعة بخيراتها ، تمتطي ثَبَج البحر، قاصدة الثغور البعيدة على شواطئ المحيط الهندي ، والخليج الفارسي ..

الثقافة ، والأدب، والفن في أزهى عصورها .

ولعلنا ــ الآن ــ ندرك سرّ وصية الرسول التي سيقولها فيما بعد « اطلبوا العلم ، ولو في الصين » . !

هذا هناك ..

أما هنا ، فكانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، والإمبراطورية الفارسية ، تخوضان من أجل المستعمرات في الشرق الأدنى ، وفي أوروبا ، حروباً مُفنية . !

فجستنيان يخرق الهدنة ، ويهاجم شمالي أفريقية ، وإيطاليا .. و يرد أنوشروان التحية بمثلها ، فيجتاح بلاد الشام ، وتسقط فى حجره كل ثروات ، وخيرات « أنطاكية » . !

ثم يعقدان الصلح .. ثم يعودان للحرب .. ولسوف يظل بأسهما بينهما شديداً ، حتى يزحف عليهما بعد وقت قريب ، أتباع رسول كريم فيذيعون نعي الإمبراطوريتين الآفلتين ..

أما اليوم ، فإنها في حروبها المخبولة من أجل السيطرة والسلب ، تبسطان سلطانها على الشام ، والعراق ، وسوريا ، ومصر .. وتسومان الناس خسْفاً وضنكاً .

وحين نعود إلى حيث كنا ، إلى الصحراء العارية .. إلى الكهوف والبادية .. إلى دنيا الأصنام ، والأزلام ، والميسر .. سنسمع صوتاً جديداً ، يلقي حديثاً عجباً .. سنبصر إنساناً جديداً يذرع الوجود في رفق وأناة ..

إنه هو الذي كان « زيد بن عمرو بن نفيل » يلح في البحث عنه .. والذي كان الزمان والمكان يتطلبانه ، و ينتظران قدومه . !

إنه ، محمد ..

« أجود الناس كفاً .. وأجرأهم صدراً .. وأصدقهم لهجة .. وأوفاهم ذمة .. وألينهم عريكة .. وأكرمهم عِشْرة » . إنه قائم بين نفر من الذين يصغون إليه هناك .. في ذلك المكان البعيد عن أعين الرقباء ، يحدثهم عن الله .

« الذي أطعمهم من جوع ، وآمَنَهم من خوف » ؟؟

الجوع ، والخوف .. ؟؟

يا لها من بداية جريئة ، وسعيدَة !!

و يتحلق حوله حرَّاس القديم ، وعُبَّاد الأصنام ، فيهمس إليهم :

« يا أيها الكافرون

« لا أعبد ما تعبدون

« ولا أنتم عابدون ما أعبد

« ولا أنا عابد ما عبدتم

« ولا أنتم عابدون ما أعبد .

« لكم دينكم .. ولي دين » .. ؟؟ !!

وهذا أيضاً ، كم هو رائع ..

إنه « تعايش سلمي » يدعو إليه محمد ، أولئك الذين برزوا مبكرين لعداوته وحربه .

ولكن ، لقد تركنا في قفزتنا السريعة هذه ، مشهد الشروق .

فإلى وراء قليلاً ، لنرى الأمل ، وهو يولد .. والرُّشد ، وهو ينمو .. والرسول ، وهو يتسلم وثيقة الاصطفاء ، وأمر التبليغ ..

■ □ ■

نحن الآن في شِعْب من شِعَاب مكة .. ومكة المتوقدة عاكفة على حياتها ..

و يولد طفل يتيم ، تتلقاه ذراعا أمّ حانية ، لا تلبث هي الأخرى أن تغادر دنياها ، تاركة وليدها في السادسة من عمره غضاً ، وحيداً ..

و يشب الطفل ، شاباً سريعاً نقياً .. وتقع عيناه على أصنام قومه .

وعلى الناس الحافّين بها ، الجاثين أمامها ، فيأخذه تفكير ذاهل شديد .
أتكون هذه الحجارة المركومة آلهة حقاً .. ؟!

و يستأني طو يلاً ، قبل أن يقبل عليها ، أو يعرض عنها ، و يأوي الى نفسه مفكراً ، ثم ينتبذ منها مكاناً قصياً ، بعيداً عن اللجاجة ، والمؤثرات هناك في دار حراء ، حيث يستجمع قُوى إلهامه ، و يصقل كل استعداداته الروحية ، والعقلية ، ويهيب بكل القُوى أن تخف لنجدته ، وهدايته ، إن كان ثمة لهذا سبيل .

ثم يعود إلى البيئة .. إلى الأصنام ، والضوضاء ، والتقاليد والأساطير ، وكل ما يشكل حياة الناس ، و يطويهم في موجات زحامه .

و يستعرض ذلك جميعه ببصيرة مجلوّة ، قد أرهفها طول التعبد ، وصفاء الوحدة ، وإلهام العزلة المفكرة .. وتقترب حقائق الأشياء من بصيرته ، فيراها أكثر مما يراها سواه .

و يعود إلى « الغار » في ميقاته المعلوم ، و ينثر بين يدي وعيه ، تجاربه الجديدة . وكلما بزغت له خاطرة ، لم يتوار منها ، ولم يهرب من مسئولية تمحيصها ، والتفكر فيها .

فثقته بنفسه جد عظيمة .. وحياته ، وسلوكه ، وعلاقاته الصادقة بالحياة ، تشد زناد الثقة فيه الى أقصاه ..

ليس في قريش من لا يدعوه « الأمين » ..
وليس فيها من لا يشهد له برجاحة العقل ، وعظمة النهج ، واستقامة الضمير ..

وهو ينال هذه الثقة بطبيعة مبينة مفتوحة ، لا التواء فيها ، ولا مخاتلة .

إنه « نسيج وحده » في غير تصنع ..

● الناس يعكفون على أصنام لهم..

أما هو، فشيء في روعه، يقول له : قف .

● الناس، يلعبون الميسر، و يستقسمون بالأزلام، و يظلمون الأرملة، و يأكلون مال اليتيم..

أما هو، فشيء في روعه، يقول له : ارجع .

● الناس يعيشون بالوراثة والمحاكاة، شعارهم « إنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » .

أما هو، فشيء في روعه، يقول له : فكِّر.

إذن، فهو إنسان يحيا داخل هالة عظيمة مضيئة من انبعاثات ممتازة متفوقة .

ولقد عانى واجبات وجوده على أمثل طريقة، ومارسها منذ البدء، في مستوى عال، لا يطيقه سوى أولي العزم من الرجال .

ومع الأيام، تنضج شخصيته، وتتفتح رؤاه .

و ينمو وعيه الداخلي نمواً تضيق به ذاته، وتحتشد قوى نفسه، وإلهامه، وتفكيره وعزيمته، احتشاداً، يتعاظم كل تلبُّث، وكل أناة، وكل انتظار.

ويهلُّ عليه، ما كان يرجو و ينتظر.. أذان من الله بالبدء.. و يقين بأنه صاحب الدور، ورائد المرحلة..

وذات يوم..

ولنصغ إليه، يصف ما حدث :

« .. جاءني الملَك فقال : اقرأ.. قلت : ما أنا بقارئ . فأخذني، فغطَّني حتى بلغ مني الجهد. ثم أرسلني، فقال : اقرأ.. فقلت : ما أنا بقارىء . فأخذني فغطَّني

الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ ..
فقلت : ما أنا بقارىء ! فأخذني فغطّني الثالثة حتى بلغ
مني الجهد . ثم أرسلني ، فقال : اقرأ باسم ربك الذي
خلق . خلق الانسان من عَلق . اقرأ وربك الأكرم . الذي
علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » .

وهكذا ، يلتقي « الرسول » بدوره . ويحمل الأمانة الكبرى . ويمضي في حذر أول الأمر .. ثم يجهر بها و يصدع حين يقول له ربه الذي اختاره واصطفاه « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن الجاهلين » .

ولسوف يواجه من الأذى ، ومن الكيد ، ومن العناد ما يز يده إصراراً وعزماً .

ولسوف ينتصر في معركة الإغراء ، انتصاراً نبيلاً ، تاركاً كلماته الهادية العظيمة ، درساً لا يرتجف ضياؤه .

« والله يا عمّ لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في
يساري ما تركت هذا الأمر حتى يقضيه الله أو أهلك
دونه » ..

سيدعو بالحكمة والموعظة الحسنة ..
فإذا أحاطت به العداوات الباغية في مكة ، هاجر بدعوته إلى المدينة .

وإذا اضطره أعداء الحياة الجديدة ، الطاهرة ، العادلة التي يبشر بها الى القتال ، قاتلهم غير معتد ، ولا مسرف ..
فإذا أظفره الله بهم أخيراً ، سارع اليهم بالنجدة و بالأمن :

« اذهبو فأنتم الطلقاء » ..

وعلى طريق حياته الباهرة ، سترتسم ، الى الأبد آثار قدمي رجل .. وإنسان .. ورسول ..

وبعد .. فماذا كان محمد والمسيح يريدان .. ؟

ما الغرض العظيم الذي سارا على طريق الرب ، ليبلغاه وليحققاه ..

لقد بَشَّرَا كثيراً بمثوبة الله .. وخَوَّفا كثيراً من عقابه .. وأذَّنا في الناس بشعائر، ومناسك ، وعبادات ..

فهل كان هذا وحسب ، غاية سعيها .. أم كان أسلوباً ووسيلة لحمل الناس على إدراك شأو بعيد ، وأمر جليل ؟

لقد قال المسيح : « جئت لأخلص العالم » ..

وقال محمد : « إنما أنا رحمة مهداة » ..

فماذا كانا يعنيان .. ؟

من أي شقاء ، سيخلصنا المسيح .. ؟

ومن أي عناء ، سيرحمنا محمد . ؟

وفي التحليل النهائي لنهجهما ولمواقفهما الزاخرة المثابرة .. ماذا سنجد ، هناك من لُبَاب خالص محض .. ؟؟

وبعبارة واحدة :

ماذا كانت وجهتهما ؟ ..

أما أنا فأقول :

كانت ، إنهاض الإنسان .. وإزهار الحياة ..

الفَصْلُ الرّابع

مَعــاً
مِن أجْلِ الإنْسَان

الإنسان ..

هذا الاسم ، ذو الرنين الصادق ، الفاتن ، المُثير ..

هذا الكائن ، الذي اؤْتُمِنَ على أمانات الحياة وواجباتها ..

هذا المسافر، الذي لا يضع عصاه عن كاهله لحظة ، والذي يُوَلّي وجهه دَوْماً شطر كمال بعيد .. !

هذا الإنسان ، في علمه وجهله .. في ثرائه وفقره .. في حريته وأغلاله .. في تقواه وفجوره .. في صحته وسُقْمه .. في ألمه وأمله .. في عظمته وبُؤسه ..

كيف تراءى لمحمد ، وللمسيح ؟

ما نوع الواجبات التي حملاها تِجَاهه ؟

ما الأغلال التي حطّماها عنه ؟

ما الانتصارات التي حقّقاها له ؟

من هذا المَدْخل سنمضي ، سائرين وراء ضياء باهر، يقودنا نحو ما يُهمنا اليوم معرفته من رسالة عيسى ، ورسالة محمد ..

ولسوف يكون من حسن حظ الإنسان ــ في محنته القائمة ــ أن يبصر عناية الله به إلى كل هذا المَدَى الذي لم يكن يَحدسه ، وَ يخَاله ، كما سيكون من سوء حظ أعداء الإنسان ، أن يظهر للناس حقيقة موقف الرسولين الكريمين ، من الإنسان ، ومن حقوقه في هذه الحياة .

قرأتم أن المسيح رفض مُلْك اليهود ، كما رفض الإذعان لإرهاب رؤسائهم ، وطلب إليهم أن يخلّوا بينه و بين كلمة الله ، يريد أن يقولها .

وقرأتم أن محمداً رفض أن يعطى الشَّمس في يمينه ، والقمرَ في يساره ، على أن يترك الأمر الذي من أجله جاء ..

فما الكلمة التي قالها المسيح ، وحرص أعظم الحرص على أن يقولها ؟ ..

وما الأمر الذي آثر محمد تبليغه ، على مُلْك يحده الشمس ، والقمر؟

إنهما لم يجيئا بدعوة مجردة ، بل بدعوة ذات موضوع حافل عظيم .

فماذا كان الموضوع .. ؟

لقد كان الإنسانَ ، وكان الحياة ..

وأول ما يبهرنا في عنايتها بالإنسان ، ذلك الترديد المُمْعِن لاسمه ، والحفاوة الصادقة به .

فالمسيح ينعت نفسه بأنه « ابن الإنسان » و يكررها كثيراً .

« إن — ابن الإنسان — لم يأت ليهلك أنفس الناس ، بل ليخلص » ..

■ □ ■

« هانحن صاعدون إلى أورشليم ، و — ابن الإنسان — يسلم إلى رؤساء الكهنة » ..

■ □ ■

« لا يذوقون الموت حتى يروا — ابن الإنسان — آتياً » ..

■ □ ■

« ومن قال كلمة على ــ ابن الإنسان ــ يُغفر له » ..

■ □ ■

« لا تعرفون اليوم ولا الساعة التي يأتي فيها ــ ابن الانسان ــ » ..

■ □ ■

« إن ــ ابن الإنسان ــ ماض ، كما هو مكتوب عنه » ..

■ □ ■

« كذلك يكون ــ ابن الإنسان ــ أيضاً لهذا الجيل » ..

■ □ ■

و يتحدث القرآن الكريم المنزَّل على محمد عليه الصلاة والسلام . يتحدث عن الإنسان ، فيعطيه صفته الحقة ، كَمِحْوَر لنشاط النبي ، وموضوع لرسالته :

« لقد خلقنا ــ الإنسان ــ في أحسن تقويم » ..

« أَوَ لاَ يذكر ــ الإنسان ــ أنَّا خلقناه من قبل ولم يَكُ شيئاً » ..

■ □ ■

« إن ــ الإنسان ــ خُلِقَ هلوعاً » ..

■ □ ■

« إن ــ الإنسان ــ لَيطغى ، أن رآه استغنى » ..

■ □ ■

« وإذا أنعمنا على ــ الإنسان ــ أعرض ونأى بجانبه » ..

■ □ ■

« فإذا مَسَّ ــ الإنسان ــ ضُرٌّ دعانا » ..
« وكان ــ الإنسان ــ أكثر شيْ جَدَلاً » ..

■ □ ■

« وَ يَدْعُ ــ الإنسان ــ بالشر دعاءه بالخير» ..

■ □ ■

« إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض ، والجبال ، فأبَيْن أن يَحملْنَها ، وأشفَقن منها ، وحملها ــ الإنسان ــ » ..

■ □ ■

ألستم تجدون لتكرار كلمة « إنسان » سبباً وثيقاً من الحنان والبر، ومن العناية ، والاهتمام ، يصله بالله ، وبمحمد رسوله ؟

إن الإنسان ، هو موضوع الرسالة إذن ، رسالة محمد ، ورسالة المسيح .. ونحسب هذا من البداهة بحيث لا يحتاج إلى تقرير ..

وإلا ، ففيم كان مجيْ الرائدين الشاهقين والرسولين الكبيرين ؟

● ولأنهما بُعثا من أجل الإنسان .. كانا إنسانَين .. كانا رجلين من البشر .. اثنين من عباد الله ومن أولاد آدم .. يأكلان الطعام ، ويمشيان في الأسواق .

ولم يجيئا مَلكين .. لم يجيئا من عالم غير عالمنا ، ولا من طبيعة غير طبيعتنا ، بل لم يُخْلَقا في خَلْقٍ يغاير خلقنا .

« ولو شئنا لنزّلنا عليهم من السماء مَلكاً رسولاً » .

هكذا يقول الله سبحانه ، وهو لم يُنَزِّل ملكاً ، لأن الإنسان الصامد أمام تجربة الحياة .. الإنسان الذي حمل أمانة الوجود بعد أن أشفق من

حملها ، وتنحّى عنها خلائق كثيرة كانت تسير معه في سباق التطور العظيم .

الإنسان هذا ، خليق بأن يتلقى من نفسه ، الدرس والمثل .. وإذن ، فلتأته رُسُله منه ..

« لقد جاءكم رسول مّن أنْفُسِكم ، عزيزٌ عليه ما عَنِتُّم حريص عليكم » ..

● ومن هنا ، يبدأ توقير محمد والمسيح للإنسان .

يبدأ من إمعانهما الكبير في توكيد بشريتهما ، وإعلان إنسانيتهما ، ووضع وجودهما داخل هذا الإطار دوماً ..

ولقد كانا ، وهما يرفضان الشطط في إطرائهما .. والغلو في توقيرهما إنما يقرران القيمة الحقة للإنسان ..

كأنهما يقولان لمن يحاول سلخهما من بشريتهما :

أيّ مقام هناك أسمي ، وأعظم ، تريد أن تذهب بنا إليه .. ؟ !!

وماذا فوق الإنسان من خَلْق .. ؟

الملائكة مَثلاً .. ؟

إنهم في خدمة الإنسان الصالح الكادح ..

وحين أراد الله أن يصطفي لنفسه خلفاء في الأرض ، تعالت ترنيمات الملائكة ، ضارعة ، مبتهلة أن يكونوا أصحاب الحظ في هذا الاصطفاء ..

لكن الله رمق « الإنسان » بعينٍ حانية ، وأشار نحوه في حب غامر وقال :

هذا هو الخليفة .. !

إذن ، فالإنسانية ، هي الجنسية المشرّفة التي يحملها المسيح ، ويحملها أخوه ، وهما بها جدُّ فخورَيْن .

عيسى يقول :

أنا ابن الإنسان .

ومحمد يقول :

أنا بشر مثلكم .

و يؤكدان هذا المعنى أكثر، وأكثر، حين يَنْهى المسيحُ من أطرى صلاحَه فيقول له :

« من قال إني صالح ؟ ! ليس من أحد صالح سوى واحد ، هو الله » ..

و يطلب إلى تلامذته ألا ينعتوه بالمسيح .. !
و يَنْهَى الرسولُ أصحابَهُ حين يقولون له أنت سيّدنا ، و يقول لهم :

« لستُ سيّداً لأحد ، إنما أنا عبدالله ورسوله » .

كان حرصهما على أن يظلا في وعي الناس مجرّد بشر، اعتداداً بدور الإنسان ، واعتزازاً بالبشرية نفسها ، ورغبة أمينة في الحياة داخل إطارها ، وطبيعتها ..

حتى معجزاتهما ..
لم تكن تعني ــ كما يحلو لنا أن نفهم ــ أنهما غادرا صفوف البشر ..

فكل عمل عادي .. يتم بأسلوب غير عادي ، يشكل معجزة ..
وإن ذلك ليبدو واضحاً في أعظم معجزات محمد وصاحبه ..

فأعظم معجزات محمد ، هي محمد نفسه ..
وأعظم معجزات المسيح ، هي المسيح ذاته .
فماذا هناك .. ؟؟

إنهما ، بشرٌ مثلنا ، يعيشون على ذات الأرض ، و يشربون من نفس الماء ، و يأكلون من نفس الطعام ..

ولكن الأسلوب الذي اتبعاه في نسج حياتيهما العظيمتين ، لم يكن أسلوباً عادياً ..

بل كان متفوقاً ، وخارقاً .. فكانت المعجزة .

والقرآن — مثلاً — كلام مَلفوظ .. ومسطور، والكلام شئ عادى ، لأن البشر جميعاً يتكلمون .

ولكن ، لأن هذا الكلام القرآني جاء بأسلوب غير عادي ، فقد صار معجزة ، ومعني أنه جاء بأسلوب غير عادي .. أن الإنسان الذي جاء به اُمّي ، لا يقرأ ولا يكتب .. وأنه بذل في إعداد نفسه ورُوحه كي يستطيع تلَقّيه عن ربه ، جهوداً ، أكثر من مضنية ، وأكثر من خارقة .

والمسيح ، حين يشفي المرضى اليائسين ، وحين يرد إلى الحياة من اقتربوا من غيبوبة الموت ، إنما يمارس عملاً عادياً من أعمال البشر ، وهو التطبيب ، والعلاج .

ولكن ، لأن شفاءه للمرضى يتم بأسلوب غير عادي ، وهو لمسة كف أو نظرة عين .. فهنا يكون العمل معجزاً .

أجل .. لقد كانت القوة الخارقة التي يرد بها المسيح العافية إلى المزمنين ، والتي يدرأ بها الموت عن الحياة المتعلقة بآخر خيوطها .. كانت قوة نابعة من ذاته .

ولكن ذاته ، لم تكن مثل ذواتنا .. بل كانت مؤهلة لعظائم الأمور، معبّأة بطاقات فريدة وهائلة .

وفي حياة المسيح نبأ يصور هذا المعنى ، ويجسمه . يرويه إنجيل « لوقا » ..

فذات يوم ، كان يعبر الطريق ، ومعه نفر من تلامذته ، واقتربت منه في زحمة الحافّين حوله ، سيدة كانت تعاني نزيفاً مزمناً .. وفي إيمان عميق واثق لمست هدب ثوبه .

وتوقف المسيح عن المسير فجأة ، وقال :

ــ « من الذي لمسني .. ؟ » .

ويجيب تلميذه ، بطرس :

ــ « يا معلم ، إنها الجموع تضيّق عليك ، وتزحمك » ..

و يعود السيد المسيح ، فيؤكد أن أحداً لمسه ، لأن قوة خرجت منه :

ــ « لقد أحسست بقوة تخرج مني » .. ! !

قوة تخرج منه .. ؟ ؟

أي تفسير عجيب للمعجزة .. ؟ !

لكأنه آت من عقل رياضي ، وليس من قلب مسيح .. !

إن الإنجيل يتم هذا النبأ ، فيخبرنا أن العلة زايلت المرأة المريضة في نفس الوقت .

وهكذا ، يساعدنا المسيح على فهم المعجزة ، وإدراك ما حدث حين يقول : إن قوة خرجت مني ..

فالذي حدث ساعتئذ ، أن رغبة إنسانية ، مؤمنة مستسلمة ، تعلقت بطاقة بشرية غامرة ، طالبة منها العون على الشفاء والخلاص ..

جهاز استقبال سَويّ ، التحم بجهاز إرسال قويّ ، فتلقّى عنه في نفس اللحظة والوقت ..

أجل ، فلم تكن لمسةَ عابرة مسترخية مستريبة ، تلك التي نَبَّهت المسيح إلى جزء من طاقته يغادرها و ينفصل عنها .. بل كانت لمسة هاتفة ، داعية ، ضارعة ، مبتهلة ..

كانت إيماناً مفعَماً ، يتحسَّس طريقه في ثقة واستنهاض ، إلى ملاذ هو وحده ، وفي تلك اللحظة بالذات ، الأمل الأوحد ، والرجاء الأعزّ.

ولقد أراد المسيح أن يؤكد لتلامذته الذين بهرهم شفاء المريضة ، أن ليس في الأمر شيْ غير طبيعي ، فأشار للمرأة قائلاً :

ــ « إيمانك قد شفاك ..

« اذهبي بسلام » .. !!

هذه المعجزات .. لم تكن ــ كما قلنا قبلاً ــ خروجاً بالرسولين الكريمين عن صفّ البشرية .

كما لم تكن تغريراً بالبسطاء ، وكسباً لإيمانهم .. فالذي لا يهديه إلى الإيمان نور الشخصية ، وجلال العمل ، لن يهديه شئ آخر ..

● ثم إن محمداً ، والمسيح ، لم يهتمَّا بشئ مثل اهتمامهما بأن يُحررا البسطاء من غفلتهم وسذاجتهم ، ويحرِّرا الذكاء الإنساني مما يُوبقه من رواسب الرؤى المغلوطة ، والأساطير الموروثة .

لقد خسفت الشمس ، يوم مات « إبراهيم » ابن رسول الله .

وقال أصحابه : « إن الشمس خسفت لموت إبراهيم » ..

أفلم تكن هذه فرصة طيبة للرسول ، لو كان مُنْتَحِلَ أمجاد .. ؟؟

بلى .. وليس عليه إلا أن يصمت ، و يدع العبارة التي قالها أصحابه تنتشر .. ولكنه لا يفعل .. ولا ينبغي له أن يفعل .. فينادي في أصحابه قائلاً :

ــ « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله .. لا ينخسفان لموت أحد .. ولا لحياته » .. !!

ومثل هذا الموقف العظيم .. موقف المسيح .

حين جاءه « يايرس » رئيس المجمع يُوَلْول ، و ينكفئ فوق قدميه يقبلهما أمام الكافة ، و يتوسل إليه ، كي يذهب الى ابنته التي ماتت ليرد إليها الحياة .

و يدخل المسيح على البنت ، وأهلها حولها ، ينوحون ، و يضجون وَ يُلْقي على الجسد المسجَّى نظرة طاهرة قادرة ، فيتحرك الجسد تحت غطائه ..

وتتحول الضجّة الباكية الحزينة الى دهشة ، وفرح ، وصياح ..
« إن المسيح أحياها » .. !!

ولكن الصادق العظيم ، يشير اليهم بكفه المضيئة ، حتى إذا صمتوا قال لهم :

« إنها لم تمت .. لقد كانت نائمة » .. !

تأملوا هذين الموقفين جيداً ، موقف محمد من خسوف الشمس .. وموقف المسيح من ابنة « يايرس » .

ثم اعلموا أنكم أمام أروع مثل لتكريم الإنسان ، ولاحترام عقله ، ولتحريره من غوغائيته وسذاجته .

والرجل العادي ..

إن النُّظُم ، وإن الحضارات ، لتمتحن بمدى ماتُقدم للرجل العادي من خدمات ، وما تهيئ له من فرصة .. وماتضفيه عليه من تكريم .

ذلك ، لأن (الرجل العادي) يمثل المجموع ، و يشكّل دوماً أكثرية المجتمع والأمة .

والنظم القويمة ، والقوانين العادلة ، إنما تُسَنُّ في الحقيقة لحماية (الرجل العادي) ، وإرباء حظوظه في الحياة .

وفي المجتمعات التي تقوم على التمايز الباطل ، يقع (الناس العاديُّون) فريسة لطبقة معينة من الأشراف والسادة ، يلقون الرعب في قلوب غرمائهم وضحاياهم ، و يستحوذون في صفاقة وفُجْر على حقوقهم وأرزاقهم .

وفي مثل هذه الأوضاع ، تتمثل حماية (الرجل العادي) وتكريمه في إعطائه الأولوية التي يستحقها بكدحه ، و بعمله .. ومَنْحه التقدير الأدبي والمادي الذي يرشحه له طول بلائه .. ثم تكون بزجر تلك العصابات الضالة المتغطرسة النَّهَّازة التي تفتك بالعدل ، و بالحق .. وعزلها عن عرشها الزائف المغتصب .

ترى ، ماذا كان موقف يسوع ، ومحمد .. من الرجل العادي .. ؟

الإنسان الذي لا حول له من مال ، أو جاه ، أو منصب .

المستضعف ، الذي طالما يُتخذ ظهره مرعى لسياط الطغاة .. !!

الكادح ، الذي طالما يصطنع عرقه نبيذاً ، يكرعه الجناة .. !

الحق أن موقفهما مع (الرجل العادي) يبهر الألباب .

وسنبصرهما الآن ، وهما يجذبان (الإنسان العادي) هذا ، ليأخذ مكانه في الصف الأول .

ثم ، وهما يَنهالان على كبرياء الأشراف الكاذبة ، فيمحقانها محقاً .. !

ولنبدأ بالمسيح .

■ □ ■

هل تبصرون هذا القائم هناك .. وسط هالة من صفاء روحه .. وفي يمينه سفر « اشعيا » يقرأ منه .. ؟؟

إنه هو، عيسى روح الله وكلمته، فلنصغ إليه :

« روح الرب مسحني ، لأبشر المساكين ..

« أرسلني ، لأشفي منكسري القلوب ..

« لأنادي للمأسورين بالانطلاق ..

« وللعمي ، بالبصر ..

« وأُرسل المُنْسَحِقِين في الحرية » .. !

وهذا أيضاً .. المطلُّ من بين الحشود الحافّة حوله .

إنه هو، يتحدث :

« طوباكم أيها المساكين ، لأن لكم ملكوت الله » .

« طوباكم أيها الجياع الآن ، لأنكم تشبعون » .

« طوباكم أيها الباكون الآن ، لأنكم ستضحكون » .. !

إن المسيح يحدد مكانه في المجتمع حين يستشهد بكلمات أشعياء ، ويتحدث بها كنبراس له ، ومنهاج .

إنه مع المساكين ، كي يبشرهم .

مع منكسري القلوب ، ليجبر قلوبهم .

مع المأسورين ، كي يحطم أغلالهم وَ يُطلقهم .

إنه مع (الإنسان العادي) الذي ليس معه من مال الدنيا ، ولا من جاهها ، ولا من سلطانها ، ما يرد إليه حقوقه التي اغتصبها منه الذين هم فوق .

لقد سلّح الناس العاديين بأقوى الأسلحة ، الإيمان والأمل ، حين قال لهم بلسان الرب القدير: طوباكم ..

وقفز بمكانتهم الاجتماعية إلى الصَّدارة ، حين جعلهم من الأهمية إلى حد أن يرسل الله من أجل حمايتهم ، وتصحيح أوضاعهم ، رسلاً ..

« روح الرب مسحني ، لأبشر المساكين » ..
« لأنادي للمأسورين بالإنطلاق » ..

إن هذه العبارة وحدها : « أنادي للمأسورين بالإنطلاق » لتمثل المفهوم الثوري لدعوة المسيح ، وتشير إلى الخطة الكاملة التي كانت ستتبدّى خلال نضاله من أجل الجماهير المهضومة .. لو قدّر لأيامه على الأرض أن تطول .

هذا الروح الكبير، الذي كان يعبر الطريق ، باحثاً عن مفلوج ، ليشفيه .. أو مصروع ، ليداويه .

والذي يوصي كل مؤمن به ؛ فيقول :

« وإذا صَنعتِ ضيافة ، فادعُ المساكين ، الجدْع ، العرج ، العمي .. فيكون لك الطُّوبى » .. !

إنه يصحح بهذه الأساليب الملائمة للبيئة ، والعصر، وضع (الرجل العادي) في مجتمع ينتهك حقوقه و يزدريه .

لكن هذا ، لا يكفي .

وكل إيماء بالكرامة والأمل لذلك الكائن المقرور المرتعش ، خليق بأن يذهب بَدداً تحت وطأة الإذلال الموصول ، الذي يصبُّه عليه صَبّاً ، السادةُ الأعْلَوْن .

إذن ، فلحساب (الرجل العادي) يقرر المسيح أن يخوض معركة كبيرة مع أولئك الأشراف .

أولاً : ليزجرِ غرورهم ، و يفتحَ أعينهم على آثامهم ومظالمهم .
وثانياً : لـيُغْرى بهم أولئك المستضعفين الذين يترنَّحُون ، فَرَقاً منهم وخوفاً .

ولقد فعل ..

وبدأ بالطبقتين اللتين كانت لهما على الناس وطأة مميتة .. طبقة الكتبة ، وطبقة الفرّيسيين .

وأمام حشد هائل من الناس ، واجههم ذات يوم .. ووقف « ابن الإنسان » يتفجّر ذكاء ، وعُنْفواناً ، وصِدْقاً .

وقف وحده ، أعزل .. لا مال ، ولا سلاح ، ولا عصبية ، ولا حزب .

وهذا ، هو الدرس .. فلو أنه قويّ ، غنيّ ، مُدَجَّج بالأنصار المتحفّزين ، ما تركت كلماته المقبلة في أنفس المستضعفين أثرها المرتجى ، ولا حركت فيهم إرادة التحدّي ، والمقاومة .

إن الدرس لنافع ، حين يُدَغدغ كبرياءَ العصابة المستعلية ، رجلٌ يُمثل حالة الجماهير تماماً ..

أعزل ، مثلما هي عزلاء ..

فقير ، مثلما هم فقراء ..

مضطهد ، كما هم مضطهدون ..

ولقد وُجد الرجل ..

وُجد روح الله وكلمته ..

وها هو ذا ..

الجموع من حوله ، وقد تعلقت به أبصارهم في انبهار ووَجل ..

ودهاقنة الطبقة المستعلية ، أمامه ، وجهاً لوجه .. لا .. بل وجوهاً منكسرة ذاوية .. أمام وجه مُتهلل ، وجَبْهة عالية .

وفي سخرية ماحقة يبدأ حملته :

« على كرسيّ موسى ...

« جلس الكتبة ، والفرّيسيون .. !

« فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه ، فاحفظوه .. ولكن حسب أعمالهم لا تعلموا .. لأنهم يقولون ما لا يفعلون » .. !!

وتـنـبـعث همهمة استنكار من جانب السّادة ، ولكنها تتلاشى سر يعاً في خضم الإعجاب الذي جاء من جانب الحشود ..

و يستأنـف حـديثـه عن أشراف « أورشليم » المـمثلين أمامه في الكهنة ، والكتبة ، والفرّ يسيين ، فيقول :

« إنهـم يحـزمون أحمالاً ثقيلة ، عسرة الحمل ، و يضعونها على أكـتـاف الـنـاس .. وهـم لا يـر يـدون أن يحـركـوهـا بأصبعهم ..

« وكـل أعـمـالهـم يـعـمـلـونهـا ، لـكـي ينظرهم الناس .. فـيـعـرضـون عصائبهم ، و يعظمون أهداب ثيابهم .. ويحبون الـمُتَّكَأ الأول في الولائم .. والمجالس الأولى في المجامع .. والـتحيات في الأسواق .. وأن يدعوهم الناس ، سيدي .. سيدي » .. !!

ثم يندفع صوته في هدير، حارّ، متوهج ..
وتتعلق أبصار الجموع بكلماته كأنها الحِمَى ، والنجدة ، والملاذ ..

« .. لـكـن و يل لكم ، أيها الكتبة والفرّ يسيون المراؤون ، لأنـكـم تغلقون ملكوت السموات قدّام الناس ، فلا تدخلون أنتم ، ولا تدعون الداخلين يدخلون .. !

« و يـل لـكـم ، أيها الـكـتبة والفرّ يسيون المراؤون .. لأنكم تـأ كـلـون بـيوت الأرامل ، ولعِلّة تطيلون صلواتكم .. لذلك تأخذون دينونة أعظم » .. !

وتخـتـلـج على وجوه الناس بشائر قوة وعزم .. فيلقفها المسيح ، و ينفخ فيها من روحِه لتنمو.. ثم يدمدم بسخر يته على السادة :

« و يل لكم ، أيها القادة العميان ..

« الـقائلون : من حلف بالهيكل ، فليس بشيء .. ولكن من حلف بذهب الهيكل يلتزم .. !

« أيها الجهال والعميان .

« أيُّما أعظم .. الذهب .. ؟ أم الهيكل .. ؟

« و يل لكم ، أيها الكتبة ، والفرّيسيون المراؤون .

« لأنـكـم تـشبهون قبوراً مُبَيَّضة .. تظهر من خارج جميلة .. وهي من داخل مملوءة عظام أموات ...

« وهـكـذا أنتم أيـضـاً ، مـن خارج تظهرون للناس أبراراً ، ولكنكم من داخل ، مشحونون ر ياء وإثماً » !!

لحساب من كانت تلك الحملة الصاعقة على محرّفي الشر يعة ومستعبدي الإنسان .. ؟؟

كانت لحساب « الناس العاديّين » .. لحساب الإنسان ، وكرامته وحقوقه ..

لحساب بعثه العظيم الذي جاء المسيح يمهد له الطر يق ، و ينحي عنه أولـئك الذين « يحزمون أحمالاً ثقيلة عسرة الحمل ، و يضعونها على أكتاف الناس » .

■ □ ■

والآن .. الى رفيق عيسى ، وأخيه .. إلى « محمد » لنبصر موقفه مع (الرجل العادي) .. وموقفه من مستغلّيه ..

ولسوف يبهرنا بمثل مابَهَرنا به المسيح ..

ولا بِدْع .. فروحاهما العظيمان ، سُقِيا بماء واحد ، واصطنعهما لنفسه أحسن الخالقين ..

والتجربة لدى الرسول ، رائعة ، وحاسمة ..

إذ نشهد فيها الرسول نفسه ، وهو يتلقى من ربه الكبير خطّةَ العمل ، والنهج الذي يحدد واجبه تجاه (الرجل العادي) ..

كيف ... ؟؟؟

إليكم النبأ العظيم .

عندما أذاع « محمد » دعوته ، اقترب منه الفقراء ، والمستضعفون شأن كل دعوة حية ، طالعة ، منقذة ..

وذات يوم ، طرق بابَ الرسول مبعوث لأشراف مكة وكبرائها ، يقول له :

« يا محمد ، إن أشراف قومك يرون أن يستمعوا لك ، ولكنهم لن يجلسوا مع صعاليك مكة وفقرائها .. فإن شئت أن تجعل لهم يوماً ، ولأتباعك يوماً .. »

والرسول بطبعه ، لا يحمل في نفسه ، ولا في تفكيره ، ولا في سلوكه ، أدنى اعتبار لمثل هذا التمايز .

وهو إذن لا يرى بأساً في أن يجيب هذه الرغبة ، حتى يربح الإيمانُ والفضيلة ، تلك النفوس الشاردة ، وعندئذ ، سيبحث هؤلاء أنفسهم عن الفقراء والصعاليك ليجالسوهم ، و يزاملوهم ، بعد أن تَلين قلوبهم لذكر الله وما نَزل من الحق .

و يطلب الرسول إلى الرجل أن يعود إليه في غد ، حيث يكون قد فكر .. أو يكون قد جاءه من الله وحي .

وفي غد ، يرجع مبعوث الأشراف في ميعاده ، ليتلقى من الرسول رفضاً أكيداً ..

ماذا حدث .. ؟

لقد جاءت كلمات الله ، تحمل للرجل العادي أعظم تكريم .

ألم يكن السادة يريدون لأنفسهم مجلساً غير مجلس الناس العاديين .. ؟؟

لا .. لن يكون لهم ذلك أبداً ..

« واصْبِرْ نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيِّ ، يريدون وجهه . ولا تَعْدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغْفَلْنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه ، وكان أمره فُرُطاً » .

■ □ ■

« ولا تطرد الذين يَدْعون ربهم بالغداة والعَشِيّ يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيْ ، وما من حسابك عليهم من شيْ . فتطردهم ، فتكون من الظالمين » ..

انظروا ..

إن رغبة السادة هذه ، لو تحققت ما ترتب على تحقيقها ضياع حق للآخرين .. ثم إنها قد تفضي بقوم ضالين إلى الهداية ، والخير.. وعلى الرغم من هذا ، يرفضها الله في حسم ، و يعتبرها من زينة الحياة الدنيا التي لا ينبغي للرسول أن يريدها .. !

إن روعة هذا المشهد تتمثل في كشفه عن مكانة الرجل العادي في عين الله .. وفي تبيانها غيرة الله على ذلك الإنسان العادي .

إن الله سبحانه ، ليجعله موضوع وصية مفعمة بالحنان ، مترعة بالمحبة ، حين يقول لنبيه :

« ولا تَعْدُ عيناك عنهم » ..

و يعتبر التمايُز، طرداً لهم وظلماً ..

فـيقول لرسوله : « وما من حسابك عليهم من شيْ ، فتطردهم ، فتكون من الظالمين » .. !!

و يسير الرسـول وَفْـق هـذا التعليم السديد الرشيد العظيم .. فلا يكاد يبصر الناس العادين هؤلاء ، قادمين نحوه ، في أي ساعة .. في أي يوم ، حتى يتلقاهم بحفاوة ، و يبسط لهم رداءه ليجلسوا فوقه ، و يقول :

« أهلاً بمن أوصاني بهم ربي » .

الإنـسان العادي إذن . الذي يمثل جمهرة الأمة والشعب في كل بلد . كـان وصـيـة الله لمحـمـد ، مثلما كان وصيته سبحانه للمسيح .. مثلما كان وصيته لكل نبي ، وكل رسول .

وكما رأيـنـا المـسيح يعمّق هذا المعنى في وعي تلامذته ، نرى الرسول يعمقه في وعي أصحابه .

ذات يوم ، يمر به رجل بادي الفقر والمسكنة .

فيسأل النبي جلساءه :

« ماتقولون في هذا » . !

فيجيبون : « هو والله خليق إن خَطَب ألا يُزَوَّج . وإن تكلم ألا يُصْغى إليه » .

و يـصـمـت الرسـول حـتـى يمـر رجل آخر عليه مخايل النعمة ومظاهر الثراء .. فيسألهم :

« ماتقولون في هذا .. » ؟؟؟

فـيـجـيـبـون : « هو والله ، حَرِيٌّ إن خطب أن يزَوَّج .. وإن تحدّث أن يُسْتمع له » ..

فيقول لهم الرسول :

« والذي نفسي بيده، إن الأول ، لخير من مِلْء الأرض من مثل هذا » .. !

هنا رسول ، يحرر قيمة الإنسان من زيف ، وزور. يحررها من الأوضاع الكاذبة المفتعلة ، و يردها إلى مكانها الحق ، في جوار الخير، والعدل ، والحق ..

ولا يترك الرسول فرصة لتكريم الناس البسطاء العاديين ، إلا اهتبلها .

يقف بين يدي الله داعياً ضارعاً :

« اللهم أحيني مسكيناً ، وأمِتْني مسكيناً ، واحشرني في زمرة المساكين » .

وإذا كانت « الجنة » تمثل في دينه ودعوته ، أرفع المثوبات ، وأبقاها وأقصى الدرجات العُلى ، وأسماها ، فقد أراد عن هذا الطريق ، أن يكرم (الرجل العادي) تكريماً ، يجعل الأشراف والسادة يتطامنون ، و يتمنون لو لم يكونوا أشرافاً ، ولم يكونوا سادة ..

ماذا قال « الرسول » في هذا المقام .. ؟

قال :

« قمت على باب الجنة ، فإذا عامة من دخلها المساكين » .

وهو يبحث دوماً عن الناس العاديين ، ليجالسهم ، و يقول :

« ابغوني — أي اطلبوا لي — ضعفاءكم » .

ثم يقرر الصفة الاجتماعية لهم ، وكيف أنهم الكادحون ، المنتجون للثروة ، وللدخل القومي .. فيقول :

« إنما تُنْصَرون ، وتُرْزَقون بضعفائكم » .

والرسول حين يستعمل كلمة « مسكين » وكلمة « ضعفائكم » لا يعني بالمسكنة ، الهوان .. ولا يعني بالضعفاء ، العجزة ..

وإنما يعنى الناس البسطاء الذين يأخذون في « الكادر» الاجتماعي مكاناً بسيطاً متواضعاً ..

ولم يقتصر تكريم الرسول للرجل العادي على تمجيده ، وتمجيد تواضعه ، وحياته العامة المتعففة .. بل شاركه هذه الحياة ..

لقد كان أكثر أهل المدينة فقراء ..

فالإنتاج محدود ، والدخل قليل ، فأخذ الرسول عليه السلام مكانه إلى جوار الأكثرية الفقيرة ..

كان يستطيع أن يحيا حياة أرغد ، بنصيبه من الفيْ ، والغنائم ، وبالهدايا التي لا تنقطع قوافلها .. ولكنه أبى .. وجعل ذلك كله أو معظمه ، من حظوظ أمته وأصحابه .. لا حباً في الجوع ، ولا اختياراً للفقر .. ولكن مشاركة للأكثرية ، ومعاناة لما تعانيه . تقول السيدة عائشة زوجة الرسول :

« كان يأتي علينا الشهر ، ما نوقد فيه ناراً .. إنما هو التمر ، والماء » ..

وتقول :

« ما شبع آل محمد من خبز البُرّ ثلاثاً ، حتى مضى لسبيله » ..

وتقول :

« ما أكل آل محمد أكلتين في يوم واحد إلا وإحداهما تمر» ..

و يقول هو، عليه الصلاة والسلام :

« لقد أُخِفْت في الله ، ما لم يخف أحد .. وأُوذيت في الله ، مالم يؤذَ أحد .. ولقد أتى عليّ ثلاثون مابين يوم وليلة ، ومالي ولبلال من الطعام ، إلا شئ يواريه إبط بلال » .. !!

مرة أخرى .. لم تكن هذه الزهادة عن حاجة وفقدان دائماً .. بل كانت طريقة مختارة ، وخطة مقصودة .. ولقد فُتحت عليه دنيا من الخيرات ، فما غيّر من سلوكه هذا شيئاً .. بل كان حين يجيئه الفيْ و يوزعه بين أصحابه ، يرجئ ابنته « فاطمة » و يقول : « حتى يكتفي الناس أولاً » .. !!

وكثيراً ما كانت الأعطيات تتقاصر دون حاجات الآخذين .. ولا تنال فاطمة منها منالاً ، فترضى ، وتصبر، لأن أباها العظيم قد وضع لأهل بيته شعاراً فحواه « أن محمداً وأهله ، هم أول من يجوع ، إذا جاع الناس .. وآخر من يشبع ، إذا شبع الناس » ..

لم يكن هذا السلوك من الرسول عن خصيصة إذن .. لا .. ولا كان تمجيداً للفقر الذي جعله الرسول في بعض أحاديثه توأم الكفر.

إنما كان :

- تكريماً للكدح ..
- وإعزازاً للبساطة ..
- وتوقيراً للرجل العادي ، الذي هو الأمة ، والشعب ..

■ □ ■

وللإنسان حقوق كثيرة ، لابد من صيانتها ، حتى يستطيع أداء دوره فوق الأرض .

وعلى رأس هذه الحقوق جميعاً :

- حق معاشه ..
- وحق ضميره ..

وإن هـذيـن الحقين ليكادان يلخصان حقوقه كلها ، تلك الحقوق التي تـفـتـحـت عليهـا أبـصـار و بـصـائر الرسولين الكبير ين الكريمين ، محمد ، والمسيح .

أمـا حـق المعاش ، فيعني تحقيق كافة الظروف الاقتصادية التي تهيئ للانسان حياة عادلة ، رغيدة .

وهو لهذا ، يهدف إلى حماية الإنسان من الاستغلال والنهب ..

وحمـايـة الثروة العامة التي هي حق الناس جميعاً ، من ضراوة المحاباة ، ومن كل فنون السرقة ، والسفه ، والاختلاس ..

لـقـد دمـدم المـسيح كثيراً بكلمات لاهبة على أولئك الذين يستمرئون عرق الكادحين ؛ وحقوق العاملين .

أولئك :

« الذين يأكلون بيوت الأرامل ، ولعلة يطيلون الصلاة » .

و « الـذيـن يظلمون الفعلة ، والحصادين ، بينما صياحهم قد وصل إلى رب الجنود » .

وإنـه لجـديـر بـأن يفعل ، وما كان ليترك الظامئين إلى العدل ، يعانون جـفـاف الحـلـوق ، واسـتـعـار الهجير، بينما حفنات من المترفين والمستغلين يتذبخون في البحبوحة ، والظل .

ما كان له أن يصرف نفسه عن هذا الوضع ، فإنه ليعلم أن عاقبة ذلك الخسرُ والو بالُ للأمة التي يعبث فيها هذا التمايز الظلوم ..

إنه يقسم الأمة على ذاتها ، ويمزقها ..

و « كل مملكة منقسمة على ذاتها ، تخرب .. و بيت منقسم على نفسه يسقط » .. !!

لقد كان الوضع الاقتصادي في الجماعة اليهودية أيام المسيح ، رديئاً ، وقاسياً ..

كان وكلاء « روما » وتجار اليهود ، ورؤساء الكهنة سواءً في التآمر على عرق الكادح ، ولقمة الجائع .

ولقد تفتحت عينا المسيح في طفولته ، وفي شبابه على السياط الباغية ، تسلخ ظهور الناس من أجل ضريبة تأخروا في دفعها .

ولو طال به العمر، لكان له مع هذه الأوضاع الشاذة وقفة طويلة ، وحامية .

لكنه رغم السرعة الوامضة التي لبثها مع دوره العظيم على الأرض ، وعلى الرغم من المُنتَهى القريب الذي تعجّل رحيله ، لم يترك ذلك الوضعَ دون أن يصححه بكلمات مضيئة وجامعة .

قال لتلامذته الاثني عشر حين أرسلهم يكرزون بملكوت الله :

« لا يكن للواحد ثوبان » ..

وهتف طويلاً بكلمات سلفه الشهيد « يُوحنا » :

« من له ثوبان فليعط من ليس له .. ومن له طعام ، فليفعل هكذا » ..

وذات يوم ، وهو يعبر الطريق وديعاً كأنفاس الزهر في فجر الربيع ، لقيه واحد من الناس ، وسأله :

أيها المعلم الصالح .. ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية » .. ؟؟

فأجابه :

« لماذا تدعوني صالحاً .. ؟؟ ليس أحد صالحاً إلا واحد ، وهو الله .

« أنت تعرف الوصايا .

« لا تزن .. لا تقتل .. لا تسرق .. لا تشهد بالزور .. لا تسلب .. أكرم أباك وأُمك » .

قال الرجل : « يا معلم ، هذه كلها حفظتها منذ حداثتي » ..

فأجابه المسيح :

« يُعْوِزُكَ شئٍ واحد ..

« اذهب ، بع مالك ، وأعط الفقراء » .. !!

وهكذا ، فإن إبن الإنسان ، وهذه دعوته ، وهذا منهاجه وسلوكه ، لا يمكن بحال ، أن يقر أي نظام يقوم على استغلال العَرَق ، واحتكار الرزق ، وتجميد الثروة ، وتعويق فرص المعيشة الكريمة الطيبة ..

■ □ ■

ويجيء محمد رسول الله ، فيصون حقوق العَمَل ، والعرق ، بتعاليم تناهت في الرشد ، والذكاء :

« أعطوا الأجير أجره ، قبل أن يجفَّ عَرقه » .

« لا تكلِّفوا الصبّيان الكَسْب .. فإنكم متى كلفتموهم الكسب سَرَقوا » .

وحين يكون هذا الأجير خادماً ، يرتفع محمد بمستواه ، و يعلو ..

« لا يقولن أحدكم عبدي .. وأمَتي .. وليقل فتاي وفتاتي » .

« .. هـم إخـوانـكُم فأطعموهم مما تطعمون ، وَألْبِسُوهم مما تَلبسون » ..

ولا تكون الثروة مشروعة وحلالاً ، إلا إذا كانت من كَسْب طيِّب ..

والـكـسـب الـطـيـب ، هو الذي لا مكان بين وسائله ، للأنانية ، ولا للاحتكار، ولا لإستغلال الكادحين والعاملين .

ولأموال الشعب ، عند محمد حرمة جدّ عظيمة ..

إنـه لـيـغـفـر كـل الخطايا ، و يتلمس المعذرة لشتى الآثام ، إلا لجريمة واحدة ، يرفع في وجهها وفي وجوه مرتكبيها قصاصاً مشحوذاً ..

هذه الجريمة هي : العدوان على مال الشعب .

انظروا ..

أتـاه ذات يـوم ، رجـل ، نـادمـاً يـعـتـرف فـي إسـفـار بجـريمة « زنا » ارتكبها ..

و بـعـد أن اسـتـمع الرسول لقوله ، أراد أن يفتح له على المغفرة ، وعلى الـنجاة نافذة .. فقد لمح من ندمه الضاغط ، ومن توبته الصادقة ، ما ينبئ بعزم أكيد على الاستقامة .. ومضى يحاول ثَنْيَ الرجل عن اعترافه .. كي يتحلّل هو من إنزال العقوبة به ..

ولـكـن هـذا الـتـسـامـح الـرحيب ، يكاد يختفي تماماً ، ليحلّ مكانه غـضـب مـدمدم ، وقصاص رهيب .. حين تكون الجريمة عدواناً على أموال الأمة ..

كـان لـه ــ عـلـيـه الـصـلاة والـسـلام ــ خـادم ــ اسمه « رفاعة ابن زيد » .. أصابه في إحدى الغزوات سهم فأنهى حياته ..

وبعد انفضاض القتال ، أقبل أصحابه عليه يعزونه في خادمه ، وقال قائلهم :

« هنيئاً له ، يا رسول الله .. لقد ذهب شهيداً » .

فأجابه الرسول في أسى :

« كلا .. إن الشّملة التي أخذها من المغانم يوم خيبر، لتشتعل عليه ناراً » .. !!

أرأيتم .. ؟

إن هذه الشملة ، ما دامت جزءاً من غنيمة ، أو فيء ، ليست ملكاً لأحد .. إنها حق الجماعة كلها ، حتى ينال كلٌّ حظّه ونصيبه .

ولقد أخذها الغُلام ، وماتساوي أكثرمن دراهم قليلة . ولقد خَدَم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومات شهيداً .. ومع هذا كله ، بقي مطوَّقاً بوزره الصغير.

ولكن ، من قال إنه وزرصغير.. ؟؟

إنها السرقة .. يستوي فيها القروش الضئيلة .. والملايين الكثيرة . سيّما حين تكون سرقة أموال عامّة .

ويعلم الرسول صلى الله عليه وسلم يوماً ، أنّ أحد الولاة ، قبل هدية .. فيغضب غضباً شديداً ، ويستدعيه إليه ، فيأتي حثيثاً .. ويسأله الرسول صلى الله عليه وسلم :

ــ كيف تأخذ ماليس لك بحق .. ؟؟

ويجيب الوالي معتذراً :

ــ لقد كانت هدية ، يا رسول الله .

ويسأله الرسول :

« أرأيت ، لوقعد أحدكم في داره ، ولم نُوَلّه عملاً .. أكان الناس يهدونه شيئاً » . ؟ !

و يأمره أن يرد الهدية الى بيت المال .

ثم يعزله عن ولايته وعمله . !

هكذا أعطى المسيح ، وأعطى الرسول حق المعاش للإنسان ، من عنايتهما ، ومن تعاليمهما ، مايجعل العمل من أجل التوزيع العادل للثروة .. والتوفير الكامل للرخاء ، واجباً محتوماً على المؤمنين بهما ، السائرين على نهجهما .

والآن .. إلى حق الضمير.

■ □ ■

لست أعني بالضمير هنا ، الوظيفة النفسية التي تثير في الإنسان الندم على شَرٍّ ارتكبه ، أو تحفزه إلى خيرٍ تقاعس دونه .

إنما نعني بالضمير الإنساني في مقامنا هذا ، غاية أبعد ، ومعنى أرحب ..

نعني به في عبارة واحدة موجزة : « الإنسان في وجوده الحقيقي » .

هذا ، هو الضمير الذي سنرى الآن كيف حمى المسيح حقه ، ورفع محمد لواءه .

إن الذي قال : « لم يخلق الإنسان من أجل السَّبت ، وإنما خلق السبت للإنسان » ، جدير بأن يكون صاحب فضل عظيم في تحرير الضمير البشري ..

ولقد قالها المسيح .. ولا أكاد أعرف عبارة تلخّص حقوق الضمير البشري ، وتعلن جلاله ، أوْفى من هذه الحكمة الفذّة العظيمة ..

ولنبدأ من البداية ...

حين تقدم المسيح ليعانق دوره العظيم ، و يبلّغ رسالات ربه . كان

الضمير الإنساني في تلك الرقعة من الأرض التي يسير عليها ، مصفداً بأغلال مبهمة ، وثقيلة ..

كانت « المساومة » تمحقه ، وتذلُّه ..
فكل سكينة نفس .. كل طمأنينة قلب ..
كل مغفرة ترتجى .. كل فضيلة تُلتمسَ ..
كل حرّية تراد .. يتقاضى عليها رؤساء الكهنة أجراً .. !!

كل عطاء ديني بثمن .. دخول الهيكل بثمن .. التماس البركة بثمن .. الصلاة للرب بثمن .. !!

وهكذا يترنح الضمير في لوثات مساومة موحِلة ، ومتاجرة مسعورة .. حتى تحوَّل إلى « آلة حاسبة » كل عملها ، أن تحصي موبقات أصحابها .. ثم تحصي أثمان مغفرتها ، وكفّارتها .. !!

هذا ، أوّل .

● كذلك كان الضمير « مجمداً » لحساب أهواء ، وتقاليد ، وطقوس ، لا تسمح له بمناقشتها ، ولا باستحسان غيرها ، حتى لو يكون خيراً منها ..

و يرزح تحت وصاية غبية ، يقيمها حرّاس هذه التقاليد وسدَنتها .

وهكذا عاش الضمير في كبت قاتل ، لا يملك حق المعارضة ولا حق التعبير عن نفسه .

لا يستطيع أن يناقش مساوئِ الحكم ، لأن حكام « روما » وجنودها ، لا يرحمون من يفعل .

ولا يجرؤ أن يناقش خرافات الكُهَّان ، وضراوة التقاليد ، لأن الكُهَّان أشدُّ قساوة وغِلظة .

● وشيء آخر .. فالضمير البشري في هذه البيئة ، كان يعاني اختناقاً مريراً ..

كانت عنصرية ضيقة عطنة، تحتبسه داخل كهفها المظلم، بعيداً عن هواء التسامح المنعش، والإخاء الرطيب الحاني .. ذلك أن « شعب الله المختار» كما كان اليهود يسمون أنفسهم، يعيش داخل مركب نقص شنيع .. يوحي إليه دائماً أنه خُليق ليحكم العالم، و يسود الأرض ..

وأنه أشرف من كل الأجناس، والألوان، والأمم ..

وأنه ينبغي، بل يلزمه أن يصون دمه وسلالاته عن التلوث بالدُّخلاء ..

والدخلاء، هم جميع بني آدم من غير اليهود .. !!

ولا شيء يفني الضمير الإنساني، ويمحقه مثل تفكيرٍ من هذا النوع، وحياة من ذلك الطراز.

والآن، يتقدم « روح الله » المسيح عيسى ابن مريم، ليحرر ضمير الإنسان في تلك الرقعة، وفي ذلك الزمان من و يلات أسره، وظلمات سجنه .. ولتظلّ كلماته ومواقفه التي سيحرر بها الضمير، دستوراً حافزاً مضيئاً لكل البقاع .. وكل الأزمان . !

بدأ، فأنقذ الضمير من وطأة المساومة، وحرره من ربقة النفعية .

وإذا كانت، هذه المساومة، تعتمد على التخويف الديني، وتستغلّ الضعف الإنساني، أدنأ استغلال .. فقد بدأ عمله هنا، ببعث الثقة في رحمة الله ومغفرته .. كما دَغدغ ضراوة الشعور الحادّ بالذنب حين يكون هذا الذنب فردياً ..

أما حين يكون إثماً « جماعياً » أي رذيلةَ « طبقة » خاصة، تحقق لهذه الطبقة نفعاً، أو امتيازاً، أو سلطاناً غير مشروع .. فإنه يدمدم، ولا يتسامح ..

حدّث الإنسانَ الضعيف ، عن « الأب السماوي » .. الرب البار الرحمن الرحيم :

« .. من منكم ــ وهو أب ــ يسأله ابنه خبزاً ، فيعطيه حجراً .. أو سَمكة ، فيعطيه حية .. أو بيضة ، فيعطيه عقرباً .. ؟؟

« فإن كنتم ــ وأنتم أشرار ــ تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة .. فكم بالحري أبوكم الذي في السماوات . يهب خيرات للذين يسألونه » .. ؟؟

وتأتيه الخاطئة ، يزفها الكهنة والجلادون فيلقي عليها نظرة طيبة آسية يلمح خلالها الضعف الإنساني الكامن في كل إنسان .. ثم يرفع بصره صوب غلاظ الأكباد ، قساة الضمائر ، وقد ملأوا أيديهم بالحجارة الحادة تأهباً لرجمها ، فيقول لهم كلماته المأثورة :

« من كان بلا خطيئة ، فليرمها بحجر » .. !

وعلى الرغم من هدوء كلماته هذه ، فقد نفذت الى أفئدتهم كرصاص مقذوف ..

وتمثلت لهم خطاياهم .. وإذ احتواهم ذهول وخزي .. التفت هو نحو المرأة ، وسألها :

« هل دانك أحد » ؟؟

وأجابته :

كلا ، يا معلم .

فيقول لها ، وهو يخاطب فيها الضمير البشري القابع المقدوح تحت وطأة إحساسه المذل بالخطأ :

« ولا أنا أدينك .. اذهبي ، ولا تخطئي » . !!!

إنه موقف جدير بابن الإنسان .. ابن الإنسان الذي جاء ليخلص الأنفس لا ليهلكها ..

وأولئك المدفونون أحياء تحت ركام الخوف ، والهول ، والخطيئة جديرون بيده الحانية الرحيمة ، تأخذ بهم في رفق كبير إلى إله طيب ، بر ، كريم ..

وليس معنى موقفه هذا إباحة الإثم ..
أبداً .. فهو لا يفتأ يذكّر بحق أنفسنا علينا ، بل و يعلمنا أن الخطيئة نفسها جزء من الأغلال التي يرسف فيها وجودنا ، وعلينا ، ونحن نحررها ، أن نفطمها عن نزواتها .

« ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله ، وأهلك نفسه أو خسرها » ..

لكنه ، وهو يدعونا لتحرير أنفسنا من الإثم ، إنما يفعل هذا بروح أخ ودود .. لا جلاّد كَنُود ..

لكأنه ، وهو يرمق « الخاطئة » بنظرته الوديعة ، كان يسأل نفسه :

إذا نحينا عن هذه ، الخاطئة .. فماذا يبقى .. ؟
يبقى الإنسان .. !!
حسن هذا .. وكل البشر إذن كذلك .

وإذن مرة أخرى ، فلا ينبغي أن نسحق أرواحهم وضمائرهم ووجودهم باللوم القاتل .. إنما علينا أن نوقظ فيهم « الإنسانَ » ليطرد عنهم « الشرير » ..

ذلك منهاج ابن الإنسان الذي لم يأت ليطبب الأصحاء . بل ليعالج المرضى والذي لم يأت ليدعو « أبراراً للتوبة ، بل خطائين » .

والآن نشهد موقفاً آخر له ، فتغمرنا حرارة مودته ، ودفء حنانه .. ونجد فيه الأب ، والأخ ، والصديق .. والقلب الكبير.. الكبير.. السَّمْح .. السَّمْح .

ذات يوم دعاه أحد الفرّيسيين إلى طعامه ، وإذ هو جالس ينتظر الطعام ، اقتحمت عليه الدار في اضطراب وتعثر ، امرأة .

لم تكد تبصره حتى أكَبَّتْ على قدميه تغسلها بدموعها ، ثم تجففهما بشعر رأسها ، ثم تعود فتضمخهما بطيب كان معها .

ويجيء الفرّيسي من داخل داره ، فيرى المشهد ، و يبصر المرأة فيعرفها .. إنها واحدة من بائعات اللذة والهوى ..

و يفرك يديه مسروراً ، فهذه فرصة جدّ طيبة لاختبار المسيح ، فإن يك مسيحاً حقاً ، فسيعلم الآن ، من هذه التي تلمسه ، وتقبِّل قدميه .

و يقرأ المسيح حديث نفسه هذا .. و يلقي عليه ، وعلى الدنيا كلها درساً ، موجهاً الحديث إلى تلميذه « سمعان » وكان ساعتئذ معه :

« يا سمعان ..
« عندي شيء ، أقوله لك » .
« قل ، يا معلم » .

و يستأنف المعلم العظيم حديثه :

« كان لمداين مديونان .
« على أحدهما خمسمائة دينار.. وعلى الآخر خمسون . وإذ لم يكن لهما ما يوفيان ، سامحهما جميعاً .
« فقل : أيهما يكون أكثر حباً له » ؟؟؟

ويجيب « سمعان » :

« أظن ، الذي سامحه بالأكثر» .

و يقول السيد المسيح :

« بالصواب حكمت » .

ثم يلتفت شطر الإنسان ، شطر المرأة الخاطئة .. التي ذهب عنها « الشرير» ، وبقي فيها « الإنسان » ، و يقول لها وعلى شفتيه الودودتين ابتسامة كضوء الفجر:

« إيمانك ، قد خَلّصك ..

« إذهبي بسلام » .. !!!

■ □ ■

أيُّ قلب ذكي ، كان يحمله يسوع . ؟؟

وأي بِرّ بالضمير الإنساني أسخى من هذا البر. ؟؟

أي صداقة ، تشدُّ أزر الإنسان في ضعفه ، أوْفَى من هذه الصداقة . ؟

وموقف آخر، يُعمق به هذا الفهم في وعى الناس ، و يطالبهم أن ينتهجوه ، و يتخذوا منه سلوكاً .

يسأله « بطرس » :

« كم مرة يخطئ إليّ أخي ، وأغفر له ؟ هل إلى سبع مرات» ؟

ويجيبه المسيح :

« لا أقول لك إلى سبع مرات، بل إلى سبعين مرة » .

وعلى طريقته العذبة السديدة ، يضرب مثلاً ، فيقول :

« يشبه ملكوت السموات ، إنساناً ملكاً ، أراد أن يحاسب عبيده .. فلما ابتدأ في المحاسبة ، قدم إليه واحد مديون بعشرة آلاف وزنة .. وإذ لم يكن له ما يوفي ، أمر سيده أن يُباع هو، وامرأته ، وأولاده ، وكل ماله ، و يوفى الدين ..

« فخرَّ العبد وسجد قائلاً : ياسيد ، تمهّل عليَّ ، فأوفيك الجميع .

« فتحنّن سيد ذلك العبد ، وأطلقه ، وترك له الدين .

« ولما خرج ذلك العبد ، وجد واحداً من العبيد رفقائه ، كان مديوناً له بمائة دينار ، فأمسكه ، وأخذ بعنقه قائلاً : أوفني مالي عليك ...

« فخرّ العبد رفيقُه على قدميه ، وطلب إليه قائلاً : تمهل عليّ فأوفيك الجميع .. فلم يردّ ، بل مضى وألقاه فى سجن حتى يوفي الدين .

« فلما رأى العبيد رُفقاؤه .. ماكان ، حزنوا جداً ، وأتوا وقَصّوا على سيدهم ماجرى .

« فدعاه حينئذ سيده ، وقال له : أيها العبد الشرير ، كل ذلك الدين تركته لك ، لأنك طلبت إليّ .. أفما كان ينبغي أنك أنت أيضاً ، ترحم العبد رفيقك كما رحمتك أنا » .. ؟ !

هكذا يقيم المسيح بين الناس تكافلاً وتضامناً ، ضدّ الآثام ، التي هم فيها سواء ، وشركاء .. وضد وطأتها الضاغطة على الضمير البشري ، حين تُتخذ أداة تحقير له ، وإذلال :

« إن فرح السماء بخاطىء واحد يتوب ، أكثر من تسعة وتسعين باراً ، لايحتاجون إلى توبة » !

« اغفروا إن كان لكم على أحد شئ ، لكي يغفر لكم أيضاً أبوكم الذي في السماوات » .

■ □ ■

وماذا صنع المسيح بثانية الأثافيّ التي كانت تدغدغ الضمير الإنساني وتؤودُه .. وهي حرمانه من حق الشكوى والمعارضة ؟ !

لقد كان موقفه من هذه عظيماً وحاسماً ، مثل مواقفه جميعاً ..

ولقد رأينا من قبل ، كيف واجه رؤساءَ الكهنة ، والكتبة ، والفرّيسيين ، أمام الحشود من الناس .. وكيف سخر منهم ، وناداهم : يا أولاد الأفاعي .. وهم الذين تعودوا تقديساً مطلقاً ، أو شبه مطلق .

لقد كان المسيح بخطبته تلك ينادي الضمير السجين الى تمرد مشروع .

وحين كان يأخذ طريقه الى الهيكل ، ووجد الباعة ، والصرَّافين ، والكُهَّان المحترفين ، يملأون رحابه .. أقبل عليهم ، يكفأ موائد الصيارفة ، و يبعثر سلعهم ، و ينادي :

« مكتوب ، إن بيتي بيت صلاة ، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص » !

ثم يهز رأسه في غيظ مضطرم ساخر، لكنه وديع ، و يقول :

« يا أولاد الأفاعي » .. !!

وهو يرسم لتحرير الضمير نهجاً قوياً حين يقول :

« تعرفون الحق .. والحق يحرركم » .

الحق يحرّرنا .. ؟

ما أوفاها عبارة ، وما أغناها حكمة .

ليس الهوى ، ولا القوة ..

إنما هو الحق وحده ، القادر على أن يهب الإنسان تحرُّراً صادقاً ، رشيداً ، لا زيف فيه ولا تأويل .

وأمام الحق ، لا يجوز لشيء ما ، أن يقف ، و يتشامخ .

ولسوف يضرب المسيح لهذا مثلاً من سلوكه حين يتحدّى عقيدة « السَّبت » تحدياً أخاذاً .. و بذلك يبعث « حق المعارضة » بعثاً عظيماً ويهب الضمير البشري خلاصاً أكيداً .

قرأتم في الصفحات الأولى من هذا الكتاب ، أن اليهود تركوا « أورشليم » تسقط في أيدي الغزاة السلوقيين .. عندما اختاروا لمهاجمتها يوم سبت .. وآثر اليهود سقوطها على أن يقاتلوا يوم السبت ، حيث تمجّد البطالة وتقدس الراحة .. !

وهذا ، يشير الى مدى ما كان لخرافة السبت في أفئدتهم وفي عقولهم من رسوخ وولاء ..

إنهم ـــ يوم السبت ـــ لا يكرزون ، ولا يعالجون .. ولا يعملون عملاً .

فإذا جاء من يتخطّى هذا كله ؛ فيكرّز يوم السبت ، و يعظ و يداوي .. فقد ضرب التقاليد الضارية ، ضربة قاضية .. وفتح للضمير المفدوح بثقلها الجاثم ، وجوّها الخانقِ الآسن ، نافذة على الأفق المشرق ، والهواء النقي .

ولقد فعلها المسيح ، ولم يقم وزناً لثورة الكهان ، والفرّيسيين ، بل جعلهم بسخريته الذكية صغاراً مبهوتين .. !

جاءته امرأة في يوم سبت تعاني علة موجعة ، فمنحها المسيح من روحه ماغالبت به مرضها ، ووجدت بسببه البرء ، والعافية .

ووجدها رئيس المجمع فرصة مواتية ، ليَشُنّ على المسيح هجوماً « مقدساً » .. !

واقترب منه ، والناس يسمعون ، وقال له :

« كيف تبرئ في يوم السبت » .. ؟

وأراد المسيح أن يلقنه درساً لا يفيق منه ، فقال موجهاً الخطاب إلى مقامه الكهنوتي الرفيع .. !!

« يا مُرَائي ..
« أفئن سقط حمارك في بئر يوم السبت ، أنقذته وأبرأته ...
« وحين يمرض إنسان ، تتركه في علته إلى يوم الأحد » .. ؟؟!!

أهناك كلام يقال في هذا المقام ، أعذب ، وأمتع ، وأروع ، وأنفذ من هذا الكلام ؟ .

ومرة أخرى ، أرادوا أن يلوموه ، لأنه يكرز في يوم سبت .. فأجاب بعبارته الجامعة :

« إنما خلق السبت من أجل الإنسان ، ولم يجعل الإنسان من أجل السبت » .. !

إن الانسان عندُ المسيح ، هو الشمس التي تدور حولها قوانين المجتمع وتسير ..

وإن له عنده لمكانة عظمى ..

« الحق أقول لكم ..
« إن من قال لهذا الجبل ، انتقل ، وانطرح في البحر .. ولا يشك في قلبه .. بل يؤمن أن ما يقوله يكُون .. فمها قال ، يكون له » ..

وهو إذ يضع عن الضمير الإنسانى بذخ السلطان ، وضراوة التقاليد .. وإذ يقيمه في مكان الند والنظير لكل سلطة أخرى على الأرض ، فيناقش كما ناقش المسيح ، و يعارض مثلما عارض ، و يعتزّ بالحق و يتبعه ، كما اعتز المسيح به وتبعه ...

هو إذ يفعل هذا ، لا ينسى أن يوصي تلامذته الذين يتمثل فيهم الضمير الناشئ المستيقظ ، ألا يتحولوا يوماً ما ، الى سلطة تعوق الضمير . وتكبله من جديد بما تنتهجه من غطرسة ، وضعف ، واستعلاء . استمعوا له ، وهو يقول لهم :

« أنتم تعلمون أن الذين يحسبون رؤساء الأمم ، يسودونهم .. وأن عظماءهم ، يتسلطون عليهم .. فلا يكون هذا فيكم ..

« بل من أراد أن يصير فيكم عظيماً ، يكون لكم خادماً ..
« ومن أراد أن يصير فيكم أوّلاً ، يكون للجميع عبداً ..
« لأن ابن الإنسان أيضاً ، لم يأت ليُخْدَم ، بل ليَخْدُم ، وليبذل نفسه فِدْيةً عن كثيرين » ..

■ □ ■

وأما الوصاية التي كان يفرضها على الضمير الإنساني جماعة المنتفعين بالتقاليد الغاربة ، والأساطير الضحلة ، فقد ألغاها المسيح بعبارة حاسمة .. وذلك حين قال واحد من الجمع :
يا معلم ، قل لأخي يقاسمني الميراث ..

فإذا هو يجيب :

« يا إنسان ، من أقامني عليكما قاضياً ، أو مقسّماً » .. ؟ !

إنه موقف يغني عن مواقف .. وإنها عبارة تمثّل دستوراً .
إن المسيح بها ، يسلم الضمير وثيقة رشده و يدعوه لمواجهة مسئولياته ، بعيداً عن كل وصاية متطفّلة ..

■ □ ■

وألآن ، إلى موقفه من الآفة الثالثة ، التي كان الضمير الإنساني يعانيها في البيئة التي جلجلت فيها كلمات روح الله .

هذه الآفة ، هي العنصرية ..

كان « شعب الله المختار» !! يعيش كما قلنا من قبل ، داخل عقدته هذه ، منطوياً على نفسه ، وعلى نواياه الرديئة جداً ، ضد الناس جميعاً .

ولكن ، قبل أن نستطرد في حديثنا هذا يحسن أن نعرف علاقة الضمير بالعنصرية .

لقد ذكرنا حين بدأنا الحديث عن الضمير الإنساني ، ما نعنيه بهذا الضمير .

وقلنا : إننا نعني به «الإنسان في وجوده الحقيقي» ..

والوجود الحقيقي للإنسان ، يعني التعبير الكامل عنه ، وفتح الطريق أمام طاقاته ، وإمكانياته ..

والإنسان .. هو: الإنسان .

لا قيمة لإختلاف اللون ، واختلاف اللغة ، واختلاف القوم .

وإذا كان الناس خلال تطورهم ، قد عاشوا أمماً ، وشعوباً .. فإن شيئاً أسمى من ذلك يُظلهم ، ويحتويهم داخل إطاره ، و يناديهم إلى نفسه .. هو: الإنسانية ..

والعائلة البشرية ، حقيقة موجودة منذ وجد الإنسان .. ولكن ظهورها كواقع يتطلب ظروفاً ، على الإنسان أن يعمل من أجل توفيرها ، ومن أجل تَعَجُّل ميقاتها .. وفي هذا يتحقق المفهوم الصحيح لاسمه ، و يتبدى الوجود الحقيقي له .

وإذن ، فكل تضليل له عن هذا الهدف ، وكل تقاعس به عن تلك الغاية ، يعتبر انتزاعاً له من وجوده الحقيقي .. و بالتالي فهو انتهاك لحقوق

الضمير الإنساني الذي عَرّفناه من قبل بأنه « الإنسان في وجوده الحقيقي » ..

ونعود لحديثنا الأول .. حيث كنا نقول إن اليهود كانوا يعيشون في « قوقعة » معتمة ، من عنصرية حالِكة .

وتحرير الضمير الإنساني ، يتطلبُ تمزيق هذه القوقعة ، وتسريح هذه العنصرية .. أو بتعبير آخر .. فإن هدم هذه العنصرية يعتبر عملاً جليلاً ، ونافعاً بالنسبة لتحرير الضمير البشري .

فماذا فعل المسيح تجاه هذا الأمر .. ؟

اقرأوا .. واعجبوا ..

كان يكلم الجموع يوماً ، وإذا أمه وإخوته ، يجيئون ، و يذهب من يقول له : أمك وإخوتك يريدون أن يتحدثوا إليك .

فيجيب :

« من هي أمي .. ومن هم إخوتي » .. ؟؟ !

ثم يبسط كفه المضيئة صوب تلامذته ، و يقول :

« ها ، أمي ، وإخوتي .. لأن من يصنع مشيئة أبي الذي في السموات ، هو أخي وأختي وأمي » . !!

■ □ ■

و يسلب من اليهود المفهوم الزائف المزوَّر، الذي يبرّرون به عنصر يتهم المسعورة .

لقد كانوا يعتمدون على وعد يزعمون أن الله أعطاه لإبراهيم .. و يفسّرون هذا الوعد تفسيراً يرضبي غرورهم ، وعنصر يتهم ، وطمعهم فى احتلال الأرض كلها .. !

كما كانوا يتبذّخون على الناس بأنهم أبناء إبراهيم ..
فانظروا ، كيف يجردهم من هذه ، و يتركهم عُراة .. !

« يا أولاد الأفاعي ..
« لا تقولوا لنا إبراهيم أباً .. لأني أقول لكم : إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم ..
« والآن .. قد وضعت الفأس على أصل الشجرة .
« فكل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً ، تقطع وتلقي في النار» .. !

يا لصدق الكلمات ، و يا لروعتها ..
إن انتسابكم لإبراهيم لا يفيدكم شيئاً مالم تكونوا مثله صالحين .
وليس هناك بشرٌ أفضل من بشر .

ولكن ، هناك شجر يعطي ثمراً جيّداً فسيبقى ، و يزدهر .. وشجر يعطي ثمراً رديئاً ، فهذا له الفأس ، تجتثُّه ، وتبيده .

فيا أيها اليهود ، تحولوا إلى شجرة طيبة ، إذا أردتم أن تعيشوا ، وتحيوا ..

أرأيتم .. ؟؟
أرأيتم إلى « يسوع » العظيم ، وهو يكافح العنصرية ، ليحرر الضمير الإنساني من ربقتها .. ؟

ألم يكن الدرس في أوانه ، وفي مكانه ، حين قاله وألقاه . ؟
وأليس ، يجيء في أوانه مرة أخرى ، حين نردده اليوم ، ونرويه .. ؟؟ !

وفي مثال عذب فاتن حكيم ، يخرج الناس من قوقعة العنصرية ..

« ليس أحد يوقد سراجاً ، و يغطيه بإناء ، و يضعه تحت سرير ..
« بل يضعه على منارة ، لينظر الداخلون النور» .. !

كذلك الأمم ، والشعوب ..

كل أمة تملك نوراً .. تملك علماً .. تملك ثروة . تملك ذكاء ليس من حقها أن تنطوي عليه . بل تضعه على المنارة .. تقدمه في غير مَنّ ، وفي غير أذى للبشرية كلها .. فنحن جميعاً عائلة واحدة فوق هذا الكوكب الرحيب .

و يوجه للعنصرية ضربة مباشرة في حكمة يرويها ، ومثَل يضربه .. وذلك حين سأله سائل : مَنْ قريبي .. ؟؟

فأجاب :

« كان رجل مسافراً من أورشليم ، الى أريحا .. وكان الطريق محفوفاً بأخطار اللصوص ، وقطاع الطرق .. فنصحته زوجته بالتريث حتى يجد من يرافقه في سفره .. وإذ ذاك انبرى ابنه الصبي يقول : إن والد صديق له يزمع السفر في نفس الطريق .

« وكان الآخر، سامرياً ، فلم يكد الأب يعلم هذا ، حتى انتفض كمن لدغته عقرب ، وصاح بابنه : كيف تصادق ابن سامري نجس .. ؟ أما تعلم أن السامريين تصاهروا مع العجم منذ مئات السنين . ؟ إن فعلتك لو عُرفت ، لأثرت في عملي وتجارتي .

« ورفض الرجل اقتراح ابنه الصغير، وسافر منفرداً . فهاجمه اللصوص في الطريق . وسلبوه ماله وثيابه .. وأصابوه بجرح ، ثم تركوه بين حي وميت .

« ومر به كاهن ؛ فرآه .. لكنه تغاضى عنه . ومضى في طريقه ..

« ثم مر به رجل من عشيرته ، فتجاهله و واصل سيره .

« وأخيراً ، مر به « سامري » ، فعطف عليه ، وتوقف ، فغسل جراحه ودهنها بالزيت . ثم أركبه على دابته ، وأوصله إلى فندق ، وأوصى صاحب الفندق أن يعتني به .. ثم نفحه مالاً كدفعة أولى ، على أن يتقاضاه بقية النفقات فيما بعد» ...

قصَّ المسيح هذه القصة ، وضرب هذا المثل ، ثم أتبعه بسؤال : « أي هؤلاء ، يكون قريباً للمسافر» . ؟

فأجاب الرجل :

« من صنع معه الرحمة» .

هنالك قال المسيح :

« إذن ، إذهب ، وافعل هكذا » .

لقد جمع المسيح في هذا المثال كل ملامح العنصرية الشائهة .. كما ساق في نفس المثال ، العنصرية إلى معركة خرجت منها خاسرة منهوكة .. إن يهود « أورشليم » كانوا في قطيعة مع السامريين ، لأنهم أصهروا الى العجم . !

هنا يكشف المثال عن إيغالهم في العنصرية .

وكانوا ـــ أي يهود أورشليم ـــ يحاربون من بني جِلدتهم كل من يعامل السّامريين ، أو يخالطهم ..

ولكن ، حين وقع الرجل فريسةً لقطاع الطريق ، الذين ربما كانوا يهوداً من بني جنسه .. مرّ به « كاهن » .. فلم يهتم بأمره .. !

ومر به « سامري » .. أي واحد من الذين يمقتهم ، و يقاطعهم ، و يعتبرهم رِجْساً ونجاسة .. فسارع اليه ، وغسل جراحه ، ودهنها

بالزيت ، ثم حمله على دابته إلى فندق .. حيث استأجر له فيه مكاناً طيباً مريحاً .. !!

هذا ، هو القريب ، والصديق إذن ..

الذي يفعل الخير ، و يبذل العون ، مهما تكن جلدته .. مهما يكن معدنه وقومه ..

وهكذا يزكّي المسيح ، الإخاء الإنساني ، ويحطم سدود العنصرية المنحرفة ، المتبربرة .

فالناس جميعهم لدى المسيح إخوة .. وإخوة ضعاف ، يستحقون العون ، و بذل ذات اليد ، والنفس .. وإنه ليصوغ هذه الوجهة في نبأ جليل ، فيقول :

« .. ومتى جاء ابن الإنسان في مجده ، وجميع الملائكة القديسين معه .. فحينئذ يجلس على كرسي مجده .. ويجتمع أمامه جميع الشعوب .. فيميز بعضهم من بعض — أي يعزل صالحها عن فاسدها ..

« ثم يقول الملك للذين عن يمينه : تعالوا يامباركي أبي .. رثوا الملكُوت المعدّ لكم منذ تأسيس العالم .. لأني جعت فأطعمتموني .. عطشت فسقيتموني .. كنت غريباً فآو يتموني .. عرياناً فكسوتموني .. مريضاً فزرتموني .. محبوساً ، فأتيتم إليّ .. !!

« فيجيبه الأبرار حينئذ قائلين : متى رأيناك جائعاً فأطعمناك .. ؟ أو عطشاناً فسقيناك .. ؟ ومتى كنت غريباً فآو يناك .. ؟ أو عرياناً فكسوناك .. ؟ ومتى رأيناك مريضاً ، أو محبوساً فأتينا إليك .. ؟؟

« فيجيب : الحق أقول لكم*.. بما أنكم فعلتموه بأحد إخواني هؤلاء الأصاغر، فبي فعلتم » .. !!

لم يقل بما أنكم فعلتموه بقومي .. بشعبي .. بيهود أورشليم ..

بل قال : بأحد إخواني:

وإخوانه ، كما قال من قبل ، هم الذين يعملون مشيئة الرب ، بغضّ النظر عن جنسيتهم ، وأرُومتهم ..

ومشيئة الرب ، أن يعيش الناس إخواناً .. أحراراً .. خيّرين .. سعداء ..

هذا ــ فى إيجاز ــ هو موقف المسيح من الضمير الإنساني .

فهل نتجه الآن إلى محمد رسول الله ، لنطالع موقفه من الضمير الإنسانيى أيضاً .. ؟؟

وإنه لموقف باهر، وعظيم .

■ □ ■ □ ■

« هَلاَّ شَقَقْتَ عن قلبه » .. ؟

لو كنّا هناك ، ومحمد رحمه الله للعالمين ، يلقي هذه العبارة ، لرأينا مشهداً عجباً .. !

ولرأيناه ، وهو ينشئ لحقوق الضمير الإنساني « برج حراسة » شاهق الارتفاع ، محكم النظرات ..

لقد ذكرنا من قبل أن الضمير كان مفدوحاً بوطأة آفات ثلاث :

- المساومة والتخويف .
- الإذعان الذي يحظر عليه النقاش والمعارضة ، و يُلزمه بالخضوع لوصاية منهكة ..

● العنصرية التي تحرمه من تحقيق وجوده الصحيح ، داخل إخاء إنساني رحيب .

وأمام هذه الطواغيت الثلاثة ، التي رأينا ــ قبلاً ــ كيف أبلى المسيح في مكافحتها ، وقف محمد ليجهز عليها ..

ولسوف يمضي كما مضى أخوه عيسى .. يرسل في مِثل سنا الفجر ، تعاليمه ، و يدعو في رفق لاحترام الضمير .. وترك الإنسان يحيا داخل وجوده الحقيقي ..

وحين يتطاول الشر أمامه ، و يتشامخ ، فلن يدعه يتمكن منه .

و يعتاق زحف النور الذي معه .. بل سيلقاه بالجواب الأشدّ .. و يضع رأسه العنيد تحت حد السيف .

وحتى حين يتمثل هذا الشر في قوى عارمة رهيبة ، لإمبراطوريتين كبيرتين ، كفارس ، والروم .. تواصل دعوة محمد زحفها لمطاردته .

ومن خلال هذا كله .. التعاليم المسالمة ، ومعارك المقاومة .. تبزغ حقوق الضمير على نحو جليل وفَذّ .

ولنبدأ من البداية ..

كان الناس يعبدون الأصنام ، و يستقسمون بالأزلام ، و يزجرون الطير، ليستنبطوا منها في سذاجة أمر مستقبلهم ، وخفايا غيوبهم .

وجاء محمد ليحرر هؤلاء الناس .

ماذا فيهم سيحرره .. ؟

سيحرر عقولهم من الخرافة ..

ويحرر وجداناتهم من الإفك ..

و ينقذ وجودهم من الضياع ..

و ينشر دعوته ، و يبلغ رسالة ربه .. و يصير له أصدقاء مؤمنون ، وأعداء مكذبون .

وذات يوم ، يجيئه أحد أصحابه مستأذناً في طرد واحد يعتقد أنه منافق يتظاهر بالإسلام ليؤذي المسلمين ، ويخفى في نفسه موجدة وشراً .. بدة وشراً ..

وتقدم من الرسول يعرض رأيه .. طرد هذا الرجل من صفوف الجماعة .. لأنه يضمر لها شراً .. ؟؟

يضمر شراً ؟ !

لكن ، أني تطفل على سرائر الناس هذا .. ؟

وأية رقابة على الضمير الذي جاء محمد ليساعده على النهوض . ؟

و يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم صاحبه :

ـ « هلا شققت عن قلبه » ؟ !

و يعود الرجل فيتكلم :
يا رسول الله ، إنه يخفي في نفسه غير ما يعلن .
ويجيبه الرسول صلى الله عليه وسلم :

ـ « إن الله لم يأمرني أن أشق صدور الناس لأرى ما فيها » . !

عبارة وجيزة ، صيغت في بساطة و يُسْرٍ، لكنها تحمل مضموناً يشكل دستوراً هائلاً ، وحافلاً .. يحمي الضمير، و يضع حريته بمنأى من التقحم والافتيات ..

وفي هذه البداية المشجعة ، تتمثل نقطة انطلاق الضمير في شريعة محمد ..

فهذه الرعاية لحرمته ، والتقدير لحريته ، لا يمنحان تدليلاً له ، ولا إفلاتاً لزمامه .. بل ليتعود حمل المسئولية واختيار المصير..

« يا فاطمة بنت محمد ..

« اعملي ، فإني لا أُغني عنك من الله شيئاً » ..

■ □ ■

« من يعمل سوءاً يجزَ به » ..

■ □ ■

« ليس للإنسان إلا ما سعى » ..

حين جاء محمد ، وجد الناس الذين بدأ بينهم دعوته ، يتعثّرون في وجود زائف ، و يُمارسون حياة مزوَّرة ..

وما داموا ، لا يعيشون في وجودهم الحقيقي ، فالضمير الإنساني ، إذن يعاني محنة و يترنح إعياء ..

ولقد كان ذلك حاله ..

كان مستعبَداً لأساطير الأولين ، ومنحنياً دائماً في مذلة وغفلة ، أمام حجارة مرصوصة ، تسمى الآلهة .. !!

وكان مجرد وجود صوت يقول : لا .. بمثابة إطلاق — أكيد — لسراح هذا الضمير، ودعوة له ليمارس وجوده ، وحريته ..

ولقد جاء الذي سيقول : لا ..

وهو: محمد رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ..

وسيكون التاريخ هناك ، ينتظر سماعها منه ، ليبدأ من فوره شوطاً طويلاً ، ممعناً ، جليلاً ، يطوف خلاله بمعظم الأرض ، حاملاً دعوة محمد .. معلناً نهاية الوثنية .. ساحقاً بقدمه ، أو طاوياً بيمينه ، أصنام العرب ، ونار الفرس ، وعبادة قيصر ، وهاتفاً بسيادة الإنسان على الأرض ..

فليس فيها بعد اليوم أكذوبة يعبدها ، أو قوة يسجد لها .

الذين يعبدون « قيصر » لن يعبدوه بعد اليوم ..

والذين يسجدون للنار، لن يسجدوا لها بعد اليوم .

والذين يطوفون حول الأصنام ، لن يطوفوا بعد اليوم ..

وستتقطّع جميع الخيوط غير المنظورة ، التي تربط هؤلاء ، وأولئك بمعبوداتهم الباطلة ، وآلهتهم الزائفة .

وسيقف الإنسان فوق الأرض سيداً لا عبداً .. تدفعه إلى غايته حركة جديدة نابعة منه ، لا من أصنام ، ولا من أزلام ، ولا من قيصر، ولا من كاهن ..

وشطر السماوات العلى .. سَيُيَمِّمُ وجهه ، حيث إله آخر .. إله واحد .. إله حق ..

لا ينام .. ولا يمرض .. ولا يموت .. ولا يحقد ..

إله ليس قيصراً .. ولا حجراً ..

« سأل الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، عنه ذات يوم :

كيف رأيت ربك .. ؟؟

فأجاب :

« نور، أنّى أراه » ..

أجل .. هو نور السموات والأرض .. هو قوة عالية ، عادلة ، تملأ الكون ، وتنبثُّ في الكائنات جميعاً ، انبثاثاً عظيماً مسيطراً ..

وإنا لنكاد نراه في أنفسنا .. في الشمس .. في مياه النهر .. في النبات الأخضر .. في اليَبس والجمد .. في الحركة والسكون .. في السماء .. وفي الأرض ..

يسأل الرسول جارية : « أين الله » .. ؟

فتجيبه : في السماء ..

فيرضى عن جوابها ، و يقول : إنها مؤمنة ..

ولكنه في موطن آخر يقول :

« إذا كان أحدكم يصلي ، فلا يبزق أمامه ، فإن الله تجاهه » ..

و يقول مرة ثالثة :

« لو ألقى أحدكم دلوه في بئر، لوقع على الله » ..

حتى ليكاد يتركنا نحسب أن الله هو الحياة .. أو هو رُوح الحياة ، فهو أمامك ، وعن يمينك ..

هو في الشمس الطالعة ، وفي الماء الجاري .. وفي الأفق المشرق ..

« ليس كمثله شئ ، وهو السميع البصير» ..

ألم يكن محمد ببُشراه هذه .. بفهمه هذا لله .. يطلق الضمير الإنساني من قيود يرسُف فيها أمام قيصر يعبده .. أو صنم يذِلُّ له .. أو نار يسبِّح بحمدها ..

ألم يخرجه من دائرته المغلقة .. و يقذف به إلى الجهات الأربع .. يحلِّق في رحلة صاعدة ... ؟؟؟

عندما يأخذنا من أمام الأصنام ، ومن بين أيدي القياصرة المعبودين ، و يقول لنا :

إذا كنتم تريدون الله ، فانطلقوا صوب الحياة ..

« أينما تولوا .. فَثَمَّ وجه الله » .. !!

■ □ ■

« مـا يـكـون مـن نجـوى ثلا ثة إلا ـــ هوـــ رابعهم ولا خمسة
إلا ـــ هوـــ سـادسـهـم ، ولا أدنـى مـن ذلـكَ ، ولا أكثر ،
إلا ـــ هوـــ معهم » . !

ماذا نفهم من هذه الآيات .. ؟؟

أمـا أنا ، فأفهم أنها تؤدي دوراً جليلاً ، غاية الجلال في تحر ير الضمير الإنـسـانـي من سخر ية الألوهية الزائفة التي كانت تَذِلّـه وتُضِلُّه ، وتفسد عليه رُؤاه ..

ولنعُد إلى الحديث الذي بدأنا به حديثنا هذا ..

رأيـنـا ، كـيـف أعلن الرسول عليه الصلاة والسلام ، أنه لم يجئ ليشق صدور الناس ، و يتجسس على سرائرهم ، ونواياهم ..

إنـه إذن يـصـون حـر يـة الـضـمـير، و يـعلن حقوقه .. و يصون حر ية الـتـفـكير، لأن الـتـفـكير عـمـل مـن أعـمـال السِّر يرة .. فنحن نفكر في أنفسنا ، ومع أنفسنا .. ولا يطلّع على تفكيرنا أحد ، إلا حين نعبر نحن عنه بأية وسيلة من وسائل التعبير..

وحين نحـمـل ضمائر حرَّة .. أي حين نحيا في وجود حقيقي غير زائف ولا مـبـتّسر .. فـإن تـفـكـيـرنـا بـالتالي ، يكون حراً .. و يكون سديداً .. و يكون منشئاً وعظيماً .

ماذا يفسد الضمير، و يفقده حر يته وسيادته .. ؟
إنهما : الترغيب الباطل ، والترهيب الجائر..
أي : المساومة ، والخوف ..

نفس المشكلة التي واجهت المسيح من قبل وهو يعالج مأساة الضمير.
ولسوف يُجهزُ عليها « محمد » في إبداع ، وفي إعجاز..

(أ) ليس بين الله ، والناس ، وسطاء ..

(ب) لأنه ليس أحد أحق بالوساطة من أحد ..

(جـ) لأنه لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لأبيض على أسود ، ولا تمايز أبداً بين الناس .

(د) والامتياز الوحيد ، إنما هو للعمل الأصدق ، والأصح ، والأنفع .

(هـ) فإذا كنت صاحب عمل صادق ، صالح ، نافع .. فيد الله فوق يدك ، من غير أن تطلبها ..

(و) وإذا لم تكن .. فليس ثمة من يمنحك جواز المرور .. لأن « جوازات المرور» كلها لدَى واحد لا يتكرر، ولا يحابي ، ولا ينقض سنته وقوانينه .. هو: الله ..

وإذن ، فليذهب السماسرة جميعاً إلى الجحيم إن شاءوا ... !!!

لقد انفضَّ سامرُهم وأمْحَلَت إلى الأبد ، السوق التى طالما سرقوا فيها القلوب والجيوب ..

إن محمداً يتكلم .

إنه يذيع نعي السماسرة والوسطاء .. فاسمعوا رَنينَه العذب ، وقوله الصادق :

« إذا سألت ، فاسأل الله ..

« وإذا استعنتَ ، فاستَعن بالله ..

« واعلم أن الناس لو اجتمعوا على أن ينفعوك .. لم ينفعوك إلا بشئ ، كتبه الله لك ..

« ولو اجتمعوا على أن يضرُّوك ، لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك ..

« واعلم أن النصر ، مع الصبر» .. !!

■ □ ■

« اعملوا ... !

« فكلٌّ مُيسّر لما خُلِقَ له » ..

ثم يُركز المسئولية في يد الضمير:

« إن الله ، لا يغير ما بقوم ، حتى يغيروا ما بأنفسهم » ..

■ □ ■

« من اهتدى ، فإنما يهتدي لنفسه ، ومن ضلَّ ، فإنما يَضلُّ عليها » ..

« ولا تزِرُ وازِرَةٌ وِزرَ أخرى » . ؟

■ □ ■

« الحق من ربكم » ..

« فمن شاء فليؤمن . ومن شاء فليكفر » .. !!

■ □ ■

« وإن تَدْعُ مُثقلَةٌ إلى حملْها لا يحمل منه شيْ ، ولو كان ذا قربى » .. !!

أي عظمة ، وأي صدق ، وأي خلاص من وطأة الوساطة ، والسّمسرة ؟؟

وأي مواجهة للضمير الإنساني بمسئولياته ، أوضحُ من هذه المواجهة .. ؟؟

إن أي إنسان تُثقِله أخطاؤه وذنوبه .. ثم يدعو من يساعده في وَضع حمله الذي يُبهظُه .. لن يجد المجيب .. !

« ولو كان ذَا قُرْبَى » .. !!

أنت وحدك ، عون نفسك .

فتقدم .

كن خَيِّراً ، إن شئت .. أو شر يراً !!

كن صالحاً ، إن أردت .. أو فاسداً .

الحمل حملك .. والمسئولية مسئوليتك .. والمصير مصيرك .
وهذا أرقى ما يمكن أن يحرَّر به الضمير.

فهو إذ يُعطَى وثيقة حريته .. يعطَى معها وفي نفس الوقت ، زمام مسئوليته .. !!

إن « المسئولية الشخصية » تتسع هنا ، لتشكل وجوداً جديداً ، يمارس فيه الضمير البشري حريته ممارسة ناشطة ، ممتلئة ، فعّالة .

« لا تكسب كل نفس إلا عليها » ..

■ □ ■

« من جاهد ، فإنما يجاهد لنفسه » ..

■ □ ■

« لا تُسْألون عما أجرمنا .. ولا نُسْأل عما تعملون »

■ □ ■

« لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ، ولا ضراً » !!

■ □ ■

والآن ، فمع محمد ، مرّة أخرى ، بل مرات ، بل دوماً .. لنبصره في جلاله ، وهو يحرر الإنسان ، ويحرر الحياة .

لقد رأيناه وهو يجهز على المساومة ، وعلى الوساطة التى تجعل الضمير الإنساني تابعاً ، وسلعة .

والآن نراه وهو يحرّره من الخوف .
إن شرّ ألوان الخوف ، هو الخوف من أنفسنا .

إنك قد تخاف « شَبحاً ».. ولكن خوفك سينتهي باكتشاف حقيقته .

وقد تخاف « ظالماً » ولكن خوفك سينتهى بانتهاء ظلمه .

وقد تخاف فقراً ، أو مرضاً ، أو كرباً ولكن خوفك سينتهي بمجاوزة الفقر إلى الغنى ، والمرض إلى العافية ، والكرب إلى الفرّج .

أما حين تخاف نفسك .. فإنك تصاب بشرّ مايمزقك .. ؟

لماذا .. ؟؟؟

لأن نفسك لاتفارقك أبداً ، ولو غادرت الأرض كلها إلى السماء ، وإذن فستظل مخاوفك معك ، تحيط بك ، وتُمْلي لك ، وتفقدك سكينة نفسك ، وتُتَبِّر وجودك تتبيراً .. !

وخوف النفس ، ينميه الفهم المغلوط لطبيعتها ، والمبالغة في تجسيم أخطائها ..

عندئذ يلفح الضميرَ نوع رديء قاس من الشعور الحاد بالإثم ، يشطر الذات الواحدة شطرين ، ويقسمها إلى معسكرين . ؟

ويشعل في الشخص الواحد المنقسم على ذاته « حرباً أهلية » مضنية .. !

وفى هذا ، يتقدم الرسول ليتابع القيام بواجبه تجاه تحرير الضمير.

إنه لايتغاضى عن الذنوب ، إذا كانت جرائم « طَبَقة » أو جرائم « سُلطة » ..

ونعني بجرائم « الطبقة » ، تلك التي تشكل مقاومةً لمصالح الجماعة ، وحقوقها ، وتقدمها ..

ونعني بجرائم « السلطة » ، تلك التي تُستَغل فيها الوظيفة ، أو المركز ، في انتهاب مال ، أو إهدار حق ..

أما تلك التي يفرزها الضعف الإنساني ، في نطاق فردي : فهو بها جدُّ رحيم .. !

وكما قال المسيح من قبل : « من كان بلا خطيئة ، فليرمها بحجر» ...

يقول محمد : « كل بني ادم خطّاء » .

وإنه ليضع أخطاءنا الأخلاقية في مكانها الطبيعي ، بوصفها « إفرازاً » يكاد يكون حتمياً ، لوجودنا ، ولطبيعتنا .. فيقول :

« والذي نفسي بيده ، لو لم تذنبوا ، لذهب الله بكم ، ولجاء بآخرين يذنبون ، فيستغفرون ، فيغفر لهم » .

إن الرسول ، لا يحرّض بهذا على الخطأ ، والرذيلة ..

وإنما يشير إلى قانون هام من قوانين حياتنا .. ذلكم ، هو « قانون التجربة ، والخطأ » .

إن الذنب هنا يعني : الخطأ ..

والاستغفار، يعني : التجربة ..

لأنه ــ أعني الأستغفار ــ يمثل الموقف الذي نحاول فيه استرداد أنفسنا ، وفطامها عن الخطأ الذي كانت تفارقه ..

وهذه ، تجربة ..

ذلك أن التجربة ، ليست هي الحادثة التي تحدث لنا ..

بل هي ، موقفنا من الحادثة نفسها ..

و يبثُّ الرسول في الضمير مزيداً من الطمأنينة ، فيضرب هذا المثل :

ذات يوم ، وهو يسير مع أصحابه ، يبصر على الطريق أُمّاً تضم طفلها في شغف كبير، وفي حنان أكيد .. فيقف متأملاً ، ثم يسأل أصحابه :

ــ « أترون هذه الأم ، طارحة ولدها في النار» . ؟!

ويجيب أصحابه رضي الله عنهم :

« أبداً ، يا رسول الله » . .

فيعقب الرسول ، قائلاً :

« والذي نفس محمد بيده . .

« للّهُ أرحم بعبده المؤمن ، من هذه بولدها » !!

و يتلو محمد آيات ربه فى هذا المقام .

وإذا كان الشعور الحاذ بالذنب يعزلنا عن أنفسنا ، و يسبب خوفا منها ، و يضعف ثقتنا بها . . .

وإذا كان الرسول ، قد أبعد عنا وطأة هذا الشعور، حين ضَاءل من خطورة ذنوبنا وأخطائنا . .

فإنه أيضاً ، في نفس اللحظة . . ولنفس السبب ، قد كَرَّه إلينا الخطايا ، وحذّرنا من ارتكابها . .

فليس من المعقول أن يُعنى بتطهير المصَبّ و يغفل أمر المنَابع .

وإذن ، فهو حين يدعونا الى الفضائل ، وحين ينهانا عن الرذائل ، بل وحين يُلح أحيانا في دعوته هذه ، فإنه لا يعني التحكم في الضمير، إنما يريد أن يبتعد به عن دواعي الخوف وأسبابه .

و يريد له أن يحتفظ دوماً بأمنه وسلامه .

« فالذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، لهم مغفرة ورزق كريم » .

■ □ ■

« ومن يعمل سوءاً ، أو يظلم نفسه ، ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً » . .

بل إنه لّيذهب في إفساح آماد الأمل والرحمة مذهباً بعيداً ، باراً ..

فيدعو صاحبه « أبا هريرة » ذات يوم ، و يقول له : يا أبا هريرة ، اذهب ، و بشّر كل من يلقاك بالجنة ..

و يبتهج « أبو هريرة » لهذه المهمة الطيبة التي ستنزله في قلوب الناس منزلاً مباركاً ، إذ يبشرهم بأعظم بشرى ينتظرونها ..

ويمضي مهرولاً .. يبشر كل من يلقاه بالجنة .

و يلمح .. « عمر بن الخطاب » قادماً ، فيجري نحوه سعيداً بالجميل الذي سيسديه إليه ، فيربح به قلبه .. !

و يلقاه ، و يعانقه ، و يصيح :

يا عمر .. أبشر بالجنة ..

ــ الجنة .. ؟؟ ومن أنبأك هذا .. ؟؟!

أنبأني رسول الله يا عمر .. قال لي : إذهب و بشّر كل من يلقاك بالجنة ...

و يظن عمر أن أبا هريرة قد أصابه شيء .. فيأخذ بتلابيبه في صرامة ، و يقوده أمامه إلى رسول الله ، ليستجلي الخبر ..

و بين يدي الرسول ، يتأكد عمر من صدق صاحبه .. ولكنه يشير على الرسول ألا يفعل .. حتى لا يتكل الناس على عفو الله ، فيتركوا العمل ، و يتقاعسوا عن الخير ..

■ □ ■

بعد هذا ، يجيء دور الآفة الثانية من آفات الضمير .

وهي حرمانه حقه في المناقشة ، والمعارضة ، ووضعه تحت وصاية غبية من التقاليد البالية ، ومن سدنتها ، وحُماتها .

وللرسول مع هذه ، جولة موفقة ..

ومجرد ظهوره ، كرسول ، كان « نعياً » لها ، وقضاءً أكيداً عليها .. فلقد كان عمله ، المناقشة ، والمعارضة .. وتسريح أولئك الذين يزعمون لأنفسهم من دون الناس ، حق التوجيه والوصاية .

إنه يحدث الناس عن ربه :

« سيروا في الأرض ، فانظروا كيف بدأ الخلق » ..

و يطوّف بهم بين آيات الكون وعجائبه ، ثم يقول :

« إن في ذلك لآيات للعالمين » ..

« إن في ذلك لآيات ، لقوم يعقلون » ..

و يسلك مع الناس سلوكاً ، من شأنه أن يعزي الضمير الإنساني بالمناقشة ، و بالمعارضة .

يقول له « أعرابي » : يامحمد : أعطني ، فليس المال مالك ، ولا مال أبيك ..

ويهرع إليه عمر غاضباً ، يريد أن يطرحه أرضاً ، أو يجهز عليه .. فيرده الرسول في ابتسامة عذبة ، و يقول :

« دعه يا عمر ..

« إن لصاحب الحق مقالاً » .. !!

وهو — عليه السلام — يلوم السلبيين الذين لا يواجهون الخطأ بالتقويم ، و ينهى الناس عن أن يكونوا كذلك :

لا يكوننَّ أحدكم إمَّعة ..

« يقول : إذا أحسن الناس ، أحسنت ..

وإن أساءوا ، أسأت » ..

« ولكن ، ليوطِّن أحدكم نفسه ، إذا أحسن الناس ، أن يُحسن .. وإذا أساءوا ، أن يتجنَّب إساءتهم » .. !!

وإنه ليدمدم على التقاليد التي انتهى دورها ، ثم لا تزال تتلكأ ، وتتشبث بالبقاء .. وعزلها عن الضمير الإنساني ليباشر دوره مع الحركة الجديدة للتاريخ .

و يسخر من الذين يقولون كلّما دُعوا إلى التقدم : « إنا وجدنا آباءنا على أمّة ، وإنا على آثارهم مقتدون » .

و يرثي لمصير الذين لن ينالوا صداقته يوم يقوم الناس لرب العالمين ، لأنهم « كانوا يرجعون بعده القهقرى » !!

و يقول مباركاً نهج الحياة في التغير والتطور، وهاتفاً بنا ، كي نسارع دوماً إلى نداء التجديد القويم الصالح :

«إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدّد لها دينها » ..

ولقد دمَّر الوصاية على الضمير الإنساني ، حين أعطاه حُر يته ، وحَمَّله مسؤلياته على النحو الذي رأيناه من قبل .. كما اعترف بحقه في الخَلْق ، والابتكار، والتصرف ، حين قال للناس : « أنتم أعلم بشئون دنياكم » .. !

■ □ ■

أما موقفه من ثالثة الأثافي التي كان الضمير يترنح منها ، وهي : العنصرية .. فما أروعه وهو ينقض بناءها حجراً ، من بعد حجر .. !!

لقد عرف ـــ جيداً ـــ المنزلة التي بَوّأه الله إياها .. و وضعه فيها .. إنه نذير يخرج في قومه ، و بشير.

وقومه ـــ وهنا تأخذ كلمة « القومية » أصدق مفاهيمها ، وأحقها بالإكبار والإجلال ـــ ..

قومه ، هم العالم .. دون أن ينقص ذلك من ولائك لوطنك وعشيرتك .

أجل ، هو رسول الله إلى العالم ليهديه بالحكمة والموعظة الحسنة ..

العالم كله .. حاضره ، وغائبه .. قريبه ، وبعيده .. صالحه ، وزائغه !

«إني رسول الله إلى الناس كافة » .

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ..

وحين يسأل عن أفضل الأعمال ، يجيب وما أبهره من جواب . !

« أفضل الأعمال ، بذل السلام للعالم » . !

بذل السلام للعالم .. ؟؟؟

لكأنه يقولها اليوم .. ولكأنه تخرج الآن من بين شفتيه الودودتين غضّةً ، رطبةً ، حانيةً ، دافئةً ، هاديةً ، جليلةً ... !!!

أنى يكون للعنصرية ــ إذن ــ في دعوته مكان .. ؟؟

إن العنصرية ، أنانية جشعة مظلمة ، ولقد عاش الضمير الإنساني في حمأتها حتى كاد يفقد ذاته .. وكل تحرير له منها ، يمثل تحريراً باهراً للإنسانية كلها ، إلى الأبد .

من أجل هذا ، أمره ربه أن يقول :

« يا أيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ..
وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » ..

أي لتكون غايتكم ، التعارف ، والتآخي .. !

وفي التطبيق العملي لهذه الدعوة الجليلة ، يمضي محمد كالضوء .

فـ« سلمان » الفارسي .. يأخذ مكانه إلى جوار « أبي بكر » و« عمر » القرشيَّين .. !

و « بلال » الحبشي ، يكون مكانه في السلم الاجتماعي ، ذروته وأعلاه .

بينما « أبو جهل » الزعيم القرشي ، يهوي في تقدير الرسالة إلى حضيض ليس له قرار .. !

ذلك أن العمل الصادق من أجل تقدم هذا « العالم » وسلامه .. هو الميزان الذي يحدد أقدار الناس .

و بلال الحبشي .. كان من العاملين الصادقين .. لأن الدعوة التي سار تحت لوائها ، كانت تقدماً بالحياة ، و بالزمن ، و بالناس إلى الأمام ..

كانت تأخذهم من معاطن الركود ، والبلى ، والجهل ، إلى حياة جديدة حافلة بالحركة ، و بالتطلع ..

أما أبوجهل ؛ فكان من أقطاب الرجعية ، والوقوف .. لهذا أخذ مكانه في أدنى السلم حتى دفعه الزحام أخيراً إلى التراب .. !

أليست رائعة ، وعظيمة .. وقفة هذا الإنسان الكبير، في قر ية متواضعة هي « المدينة » .. منذ ألف وأر بعمائة عام .. يمزق راية العنصر ية .. و يسوق القافلة إلى إخاء رحيب ، و يتحدث عن « بذل السلام للعالم » .. ؟؟ !!

أجل . إنها لكذلك .. سيا حين نرى في زماننا هذا ، ذي المدنيه الباذخة ، والحضارة الشامخة ، دُوَلاً ، وشعوباً تنادي بالعنصر ية ، وتقيم لها الصرح .. !

إن حاجتنا لأكيدة ، ومستمرة . لتلاوة الإعلان الذي أذاع به « محمد والمسيح » ، حقوق الضمير الإنساني ، وخلصاه به من أصفاده التي كان يعانيها ، و يقاسيها .

ولم يكن ثمة أي اعتبار لدى محمد ، للفوارق التي تستطيع إذا أهمل حطامها ، أن تخلق طبقة باغية ، أو عنصرية مستعلية ..

لا اللون ، ولا الجنس ، ولا الثروة ، بل ولا الدين ..

لا شيء من هذه جميعاً يأذن له الرسول بأن يفرّق بين الإنسان ، والإنسان .

ومن جهة اللون ، والجنس ، والثروة ، يقول فيما يقول ..

« كلكم سواسية كأسنان المشط » ..

ومن جهة الدين ، يقول عن ربه ..

« شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً ،

والذي أوحينا إليك .. وما وصينا به إبراهيم ، وموسى ، وعيسى .. أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه » ..

و يقول :

« الأنبياء إخوة . أمهاتهم شتى ، ودينهم واحد » ..

وهو ، كرسول للإسلام ، يعامِل أهل الكتاب معاملة الأخ والندّ .. ما لم تحمله ضرورات حرب على سلوك آخر طارىء ، لا يلبث أن يزول بزوال تلك الضرورات ..

لم تكن لدعوة « محمد » عليه الصلاة والسلام حدود إقليمية .. ولم تأخذ أبداً طابع التعصب ، ولا العنصرية ..

انظروا ...

حين قدِم المدينة ، وجد اليهود يصومون يوم « عاشوراء » ..

فسألهم : لماذا تصومونه .. ؟؟

فأجابوه : إنه يوم عظيم .. أنجى الله فيه موسى ومن معه .. فصامه شكراً لله .. ونحن لهذا نصومه .

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم :

« نحن أحق وأولى بموسى منكم » ..

وصام « عاشوراء » .. وأمر المسلمين بصيامه .. !!

هذا رسول « إنسانيّ » الرؤى .. « عالميّ » النهج .

ومن ثمَّ ، لم يكن للعنصرية في حياته ، ولا في دعوته مكان .

■ □ ■

هكذا حرَّر « محمد » ، كما حرَّر « المسيح » الضمير البشري من الأخطبوط الذي كان يحتبسهُ ، ويمحقه ، والذي أفضنا في الحديث عنه ، وفي الحديث عن الإجراءات التي اتخذها ضدَّه ، الرسولان الكريمان .. !!

ونود أن نذكِّر بما قلناه من قبل .

أن الضمير الإنساني ، كما نعنيه هنا ..

هو « الإنسان في وجوده الحقيقي » .

وأوَّل مظاهر هذا الوجود الحق للإنسان ، هو.. الفكر.

وكل دفاع عن حرية الضمير، وحقوقه .. هو دفاع عن حرية الفكر، وحقوقه .

ومن شاء .. فليعد تلاوة النصوص التي سلفت كلها .. فسيبصر أنها مباشِرَة في حماية الفكر، مثلما هي مُبَاشرة في حماية الضمير.

إن « التفكير» عملية ذهنية .. نُزَاولها جميعاً بأسلوب تلقائي حتمي .. لا نتكلفه . ولسنا على دفعه بقادرين .

كل فرد يفكر في شئونه ، ومشاكله ، وشواغله ، ورُؤى نفسه .

وكل فرد يعبّر عن ذات نفسه بالطريقة التي يستطيعها .

ويتعرقل تفكيرنا .. ويناقق تعبيرنا ، حين تُصِيبنا بعض الضغوط الكابحة .

هـذه الـضـغـوط الـتي تـرتـكـب بـتـقـحمها حِمَى الفكر.. جريمة..
« إرهاب الضمير » .

وإرهـاب الـضـمير، أشَدُّ قـسـاوة ، وأكبر إفـكـاً ، وأيـأس مصيراً من إرهاب الجسد .

ذلك أن « إرهاب الجسد » قد يَكْبِتُ التصرُّفات والسلوك والقول ..

ولـكـن الـفـكـر يـبـقـى بـعـد هذا يعمل ، ويجمع الوقود ثم يزجيه ليوم الفصل .

ولـيـس على ظـهـر الأرض قـوة ، تـسـتـطيع أن تمنعك عن التفكير فيما تشاء ..

ذلك أن التفكير عملية مخبوءة ، غير منظورة ، وغير مسموعة .

إنـك ــ فـي صـمـت ــ تـفـكـر فيما تشاء .. ولا يعلم أحد عن موضوع تـفـكـيـرك وخـاطـرات نـفـسـك شـيـئـاً ، إلا حين تـفتح شفتيك ، وتحرّك لسانك ..

ومـهما تـكن الظروف التي تمسك لسانك عن كلام تر يد أن تقوله .. أو تمسك سلوكك عن عمل تر يد أن تمارسه ، ففي يوم ما ، ستتوفّر لك لا محالة ، ظروف أخرى تمكّنك من القول ومن العمل في حر ية واختيار .

لـكـن إرهـاب الـضـمير شيء مختلف جداً .. فهو يسلّط على « بؤرة » الحياة فيفسدها إفساداً لا يكاد يصلحها بعد ذلك شيء .

أو هـو، يـلـوي زمام الضمير عن السبل الصحيحة ، إلى طرائق ، كلها حفر وعثرات .. !!

إنك ــ مثلاً ــ حين تؤمن بحق البشر في سلام دائم ، ويمارس ضميرك دومـاً تـفـكـيراً دائباً في هذا الحق .. ثم تقوم ظروف قاهرة ، أو قوة راهبة ، تحـول بـيـنـك ، و بين الإعلان عن صوت ضميرك ، وإذاعة ما تفكر فيه ..

فإن ذلك لا يضير.. إلا ريثما تتوارى تلك الظروف ، فتجد فرصتك في التعبير عن ضميرك ، وعقلك ، وفكرتك التي أنضجتها المثابرة ، والأناة ، والصبر المفروض .. !!

لكن حين تكون الظروف من نوع آخر فتنفذ بالإرهاب السادر، أو بالخداع الماكر إلى ضميرك نفسه .. إلى عقلك ، وتفكيرك ، فتفسده حتى ترى السلام خرافة .. والحروب ضرورة .. فتلك هي الكارثة التي لا تكاد تؤذن بعلاج .. !!

لماذا .. ؟؟

لأن الضربة هنا ، وجهت إلى « بؤرة » الحياة نفسها .. إلى « مركز التنفس » ذاته .. إلى الجهاز العظيم الذي يصنع لنا في الحياة كل جليل من الأمور، وكل عظيم من الأعمال ..

ذلكم هو العقل .. والضمير.

ومثل آخر..

قد تكون إنساناً متديناً ، وتعتقد ــ خطأ ــ أن تعليم البنت حرام .. عندئذ ، ستكون مستعداً حسب درجة تدينك إلى ارتكاب أية جريمة ، تمنع هذا الذي تظنه منكراً ، وهو تعليم الفتاة ..

وساعتئذ ، لن تسمى جريمتك هذه ، جريمة ، ولكن ستدعوها جهاداً .. وبطولة .. وإذا انتهت بموتك ، فسترى الموت ، تضحية ، واستشهاداً .

وقد تكون من الذكاء والمقدرة ، بحيث تستطيع أن تجمع حولك « قطيعاً » هائلاً من المؤمنين بك ، وبقولك ..

وقد تستطيع أن تقود هذا القطيع إلى فتنة أو ثورة ، تكافحون بها « تعليم البنت » ــ مثلاً ــ .. !

وسيكون السبب الكامن وراء هذا كله « انحراف الضمير» .. !!
ومن أين يجئ هذا الانحراف .. ؟.؟

- يجيء من إرهاب الضمير..
- ومن تضليله ، وحبس المعرفة عنه ..

و يتم إرهاب الضمير عن طريق التخويف الديني .. والتخويف السياسي .. والتخويف الإجتماعي ..

وإن ضحايا الحروب الدينية .. والثورات السياسية والاجتماعية .. لتشير إلى إرهاب الضمير، كنقطة بدء لكل ما أصاب ، وما يصيب البشرية من عناء .

ولو أن الناس يُتركون، ليفكروا في حرية ، وليبلغوا حقوقهم في حرية ، لتوفر كثير من الدم المراق ..

ومن أجل هذا ...

ومن أجل أن يحيا الناس في وجود حقيقي صادق طيب .. هتف محمد وهتف المسيح بالكثير من حقوق الفكر، والضمير.

ولقد حدثتكم في بعض مؤلفاتي السابقة ، عن المدى البعيد ، والرشيد الذي ذهب إليه محمد ، في احترامه حقوق العقل ، حتى فتح ذراعيه لحرية الشك ذاتها ..

وذلك ، حين ذهب إليه بعض أصحابه ، يَشْكون إليه أنفسهم ، و يبثونه مخاوفهم القاتلة من شكوك في الله ، تُسَاوِرُهم ..

فإذا هو يُجيبهم متهللاً :

« هل وجدتموه ... ؟؟ ــ يعني الشكّ ــ » .

فيقولون في أسى : نعم ..

فيجيبهم في بشر:

« الحمد لله .. هذا مَحض الإيمان » ... !!!

من كان يعرف مثالاً ، لاحترام الضمير الإنساني ، أروع من هذا المثال ، فليدلنا عليه ..

هذا رسول .. صاحب دعوة .. وصاحب دين ..

لُبّاب دينه ، الإيمان بالله ..

ثم يعتبر الشك سبيلاً لليقين ، ووسيلة للإيمان ، بدلاً من أن يعتبره جريمة ووِزْراً .. ؟؟

إنه لأمر فريد ، وعجيب .. !!

■ □ ■

والآن .. يجيء دور سؤال هام ، علينا أن نعرضه .. وعلينا أن نواجهه في شجاعة ، وفي بصيرة ..

وهذا هو السؤال :

ألم يكن السلوك الذي حدده المسيح ومحمد للناس ، وطلبا إليهم ألا يُجاوزوه ــ وصاية على الضمير .. ؟؟

ألم يكن التخوف الشديد الذي بثّاه خلال وعيدهما للعصاة .. إرهاباً للضمير .. ؟؟

سؤال يجيء في أوانه ، وفي مكانه ، بعد حديثنا المسهب عن رعاية الرسولين لحقوق الضمير الإنساني ، وحمايتهما لمصيره .

وأجيب : لا .. لم يكن من ذلك شيء .. إذا أحسنا فهم محمد وفهم المسيح ..

لقد ظهر المسيح في قوم ، كانوا يخضعون ــ كارهين ــ لوطأة « روما » وكبريائها .. ويخضعون ــ مخدوعين ــ لتعاليم الكهنة وخرافاتهم ..

ناس ، كان الضمير فيهم ملفوفاً داخل قطعة من العلم الروماني .. المرشوش بالماء المقدس .. أو الذي كان الكهنة يسمونه مقدساً .. !!

وكانت السلطة الزمنية ، والسلطة الدينية « متفاهمتين » تماماً على موقفهما من الضمير « متفقتين » على ضرورة اضطهاده ، والتنكيل به .

السلطة الزمنية ، تضطهده بوسائلها المعروفة .. السجن .. والصلب والتعذيب .. !!

والسلطة الدينية ، ترهبه بوسائلها المعروفة كذلك .. الطرد من الهيكل .. الحرمان من البركة .. الوعيد بالنار .. !!

فماذا فعل المسيح تجاه هاتين السلطتين الضالتين ؟

أما الأولى فقد أراد أن يعزل سلطانها عن الضمير بطريقة ذكية ، فقال حكمته المأثورة :

« ما لقيصر ، لقيصر .. وما لله ، لله » ...

واتجه صوب السلطة الدينية ، التي كانت في معظم تصرفاتها « دثاراً » يغطي جرائم روما وسلاحاً يفتك به حكامها .. فقال لرؤساء الكهنة :

« يا أولاد الأفاعي .. يا مراءون .. أنتم كَذّابون ، ومهرّجون .. تتحدثون بالصالحات وأنتم فَجَرة » .. !!

وعمد إلى أساطيرهم ، فتحداها وسخر منها ..

واستقبل الضمير الإنساني ، القابع في أفئدة ناس يرتجفون من الخوف ، فقال لهؤلاء : لا تخافوا .. إن أباكم السماوي قادر على حمايتكم .. وهو فيما يتعلق بحقوقه ، غفور ورحيم ..

وبمثل هذا .. قام محمد ..

قال للأشراف الذين كانوا يستضعفون الناس ، وَ يَسْتَرِقُّونَهُمْ :

« ليس لابن البيضاء ، على ابن السوداء فضل .. فارفعوا العبيد إلى جواركم » ..

فلما وضعوا أصابعهم في آذانهم ، قاد العبيدَ بنفسه ، ليأخذوا مكانهم المشروع ، بجوار السادة ..

ولما رفع السَّادة سيوفهم .. صاح بالعبيد ، أن يدحرجوا السادة الغاصبين إلى السفح البعيد .. و يأخذوا مكانهم الذي هم به جديرون . !

واتجه صوب « الأسر الديني » المتمثل في الأصنام .. فألقاها على الأرض أنقاضاً وتراباً ، وقال ، وهوينكت مصيرها :

« جاء الحق ، وزهق الباطل .. إن الباطل كان زهوقاً » .. !!

ولم يكن ذلك من المسيح ومن محمد ، إلا لحساب الضمير ، ولحساب التقدم الإنساني أيضاً ..

وقد يصعب على بعض الناس ، تصور هذا اليوم ، لأنهم بعيدون — جداً — عن الزمان ، وعن المكان ، وعن الظروف التي تمت خلالها ، تلك الخطوات الجليلة ، الجريئة ، الفاتحة ..

وهنا نسأل :

أكان يصح ، والرسولان الكريمان ، يهدمان تعاليم جامدة ، ألا يقيما مكانها نهجاً للحياة جديداً .. ؟؟

بَدَاهةً ، لا .. ولابد إذن من منهاج .. ولقد دعا كل منهما إلى منهاجه .

وهذا المنهاج ، ثابت و باقٍ فيما يتعلق بقيم الحياة المثلى .. من خير ، وحق ، وجمال ، وتضحية ، ومعرفة ..

ولكنه مَرِن ، ومتحرك ، وقابل للتطوير ، فيما يتعلق بسلوك الجماعة ، واحتياجاتها ..

والآن ؛ نسأل سؤالاً آخر :

ماذا كانت طبيعة دعوتها .. ؟؟

أكانت وصاية على الضمير .. ؟؟

أكانت ، وهي تدعو الناس إلى فضائل معينة تريد أن « تحَدِّد إقامة الضمير » .. ؟

اكانت ، وهي تُخَوِّف الناس من عاقبة الخروج عن الصف ، تريد أن ترهب الضمير .. ؟

إن تخويفاً أكيداً ، قد حدث ..

ونستطيع أن نلتقى به في تلك الآيات الغضَاب التي يضمها الإنجيل ، ويضمها القرآن ..

● لكن التخويف الذي لا يتحوَّل إلى إرهاب ، قد يكون نافعاً .. سيما في تلك الأزمان البعيدة .. ذلك أن الطبيعة الإنسانية ، كما تنفعل بالرجاء ، تنفعل بالخوف ..

ونحن حتى اليوم ، تعتمد قوانيننا ، ويعتمد عرفنا الاجتماعي ، على الزواجر ، كوسيلة من وسائل التربية والتقويم : وكما قلنا : التخويف في حد ذاته ، وبقدر حصيف ليس ضَاراً ..

فلا بد من مخافة المرض .. حتى نُعنى بالصحة ..

ولا بد من مخافة الفوضى .. حتى نحترم النظام ..

ولا بد من مخافة الحرب .. لكي نتشبث بالسلام .

إلى الآن ــ على الأقل ــ يلعب الخوف الطبيعي هذا الدور في تقدمنا ..

ولكن حين نسرف في استعمال الخوف فيصير إرهاباً .. أو نسيء استعماله ، فلا نقدم معه الأمل والرجاء ، فإن الوضع آنئذ يختلف كثيراً .

و يتحوَّل الخوف إلى جريمة و وبال .

والتخويف الذي لوَّح به المسيح ، وأخوه محمد ، لم يكن مسيئاً ، لأنه لم يكن وحده .. بل كان وَسط ذُخر عظيم من الرجاء ، والأمل ، والكشف الصادق عن رحمة الله الواسعة ، وفضله السابغ ..

كما أنه لم يكن إرهاباً ..

فالمسيح ، لم يحمل سيفه ليدخل عقائده في قلوب الناس عنوة ..

ومحمد لم يحمل سيفه ليدخل عقائده في قلوب الناس عنوة ..

إنما حمله ، ليدافع عن نفسه وعن دينه ضدَّ المعتدين ..

وليس أدلّ على هذا ، من أنه حين ظفر وانتصر ، لم يُكرِه واحداً من الناس على الدخول في دينه ..

ولقد رفع ـــ عالياً ـــ هذا المبدأ الجليل الذي أوحاه إليه ..

« لا إكراه في الدين .. قد تبين الرُّشد من الغيّ » ...

● وإذا انتفى وجود الإرهاب .. انتفى وجود الوصاية ، والحجر على الضمير ..

لقد كان لكل من الرسولين ، عقيدته ومنهاجه .. بثَّ الرسولان دعوتهما في حرارة وقوة ، ورسما للمؤمنين بهما مسلكاً وطريقاً .

ولكن ذلك كله ، لا يعني الحجر على الضمير الإنساني ، ولا ينبغي أن يعني ذلك في وعينا .

فكل إنسان حر ، في أن يقبل عليهما ، أو يعرض عنهما .. وهما لا يسلكان الناس في الأغلال ، ثم يسوقانهم إلى الإيمان ، والإذعان ..

كما أنهما لا يحرمان المؤمنين بهما من حق التفكير والمحاولة ..

هذا هو المسيح يقول :

« ابحثوا عن الحق » ..

والقرآن يقول :

« سيروا في الأرض ، فانظروا كيف بدأ الخلق » .

والرسول يقول :

« تفكُّر ساعة ، خير من عبادة سنة » ..

ولقد طالعنا من قبل موقفه الجليل إزاء الذين غلبهم الشك في الله ، أو كاد .. فما عنّفهم ، ولا فتح لهم أبواب الجحيم ، بل قال لهم ، وعلى شفتيه بسمة الرضا واليقين :

« هذا صريح الإيمان » .. !!

الفَصْلُ الخامِسُ

مَعـًا

مِن أجْلِ الحيَاة

« أنا خبز الحياة » ..

كان المسيح يُهدي إلى الحياة من خير ما في نفسه ، حين قال هذه الكلمات ..

وإنها لتحمل من الطرافة ، بقدر ما تحمل من الحكمة الغنية الحافلة ...

وإنها لتثير تساؤلاً ، وعجباً .. ؟ !

فماذا كان يعني المسيح بالخبز .. ؟؟

أكان يعني المذاق المادي لطيبات الحياة وهو الذي قال : « لا تطلبوا أنتم ما تأكلون ، وما تشربون » .. ؟؟

ولماذا اختار هذا التركيب بالذات « خبز الحياة » .. ؟

لماذا ، وهو العابد الأوّاب ، لم يقل : أنا خبز الإيمان .. أو : أنا خبز التقوى .. أو خبز الآخرة .. ؟؟

لماذا آثر « الحياة » .. وقال : « أنا خبز الحياة » .. ؟؟

ألا إن الجواب ليسير ..

فالحياة ، هي « الموضوع » الذي جاء المسيح ليجلوه للناس ، و يشرحه ، و يلقي فيه درسه البليغ ..

هي « الأم » التي جاء المسيح ، كما جاء محمد ، وكما جاء إخوة لهم من المرسلين ، لينادوا إليها ابناءها الشاردين عنها .. وليحيوا في آنفس الناس .. شعائر البرّ بها ، والولاء لها ..

وإذا كانت الحياة لا يظفر بها ، ولا يحياها ، إلا اولئك الذين يكون لهم وجود حقيقي ، فقد جعل الرسولان العظيمان نصب أعينهما ، اكتشاف هذا الوجود الحقيقي للإنسان ..

ووجودنا الحقيقي ، يبدأ من أين .. ؟؟

يبدأ من حيث توجد وتمارس العلاقات الصحيحة مع كل ما حولنا ..

ولقد كان اكتشاف هذه العلاقات ، أكثر ما عاش له ، وعمل في سبيله ، محمد ، والمسيح ..

لقد كشفا للإنسان أزكى علاقاته ، بالله .. وبنفسه .. وبالعائلة البشرية كلها .. وبالكون وأسراره الحافلات ..

● أما علاقتنا بالله ، فقد ارتفعا بها فوق كل رغبة ، ورهبة .. وجعلاها حباً خالصاً ..

قال المسيح :

« الله محبة » ..

وقال محمد :

« أفضل الأعمال ، الحب في الله » ..

● وأما علاقتنا بأنفسنا ، فقد ركّزاها في العمل الدائب على صقلها ، وتعليقها .

قال المسيح :

« ماذا ينفع الإنسان ، لو ربح العالم كله ، وخسر نفسه » ..

وقال القرآن المنزل على محمد :

« قد أفلح من زكّاها ، وقد خاب من دَسَّاها » . .

● وأما علاقاتنا بالآخرين ، فالتسامح المطلق ، والتعاضد الوثيق .

قال المسيح :

« أحسنوا إلى مبغضيكم ، وَصلُّوا لأجل الذين يسيئون إليكم و يطردونكم » . .

وقال محمد :

« أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » . .

● وأما علاقتنا بالكون ، و بأسرار الطبيعة ، فهي التطلع الشغوف ، والبحث وراء المجهول .

قال المسيح :

« اقرعوا ، يُفتح لكم » .

وقال القرآن الكريم :

« سيروا في الأرض ، فانظروا كيف بدأ الخلق » .

عندما تتوفر لنا هذه العلاقات الرشيدة ، تتولد من تفاعلها « حركة » دائبة ، بانية ، غايتها استثمار وجودنا .

واستثمار الوجود بما يقتضيه من حركة ، وبما ينشئ من تَبعة ، وبما يُعطي من نتيجة : هو الحياة . .

لقد أحبّ المسيح الحياة ، بقلب حميم ، وعشقها بروح وَدود .

كان ــ كما وصف نفسه ــ خبز الحياة . . لأنه غذّاها بتعاليمه ، وسقى مثُلها العليا ، وَقيَمها الباقية من رُوحه .

ومن أراد أن يبصر حبّ المسيح للحياة ، فليبصره في الإنسان .

فقد كان الإنسان خير موضوعات الحياة عنده ..

وأحبّ وأقرب أشكال الإنسان إلى قلبه .. الطفل ..

إن « الإنسان الطفل » حبيبُ روحه ، وصفيّ نفسه .. لأنه خير مثال للحياة الطالعة .. الصاعدة .. البريئة .. الصادقة .. !!

إنه يحبّ الحياة ، غضّة ، مُترعرعة ، ناضرة ، لا تأثيم فيها ، ولا مُخَاتَلة .

ومن ثمّ مجد انعكاسها هذا على خير موضوعاتها ــ الإنسان الطفل ــ الذي يمثل الحياة الكاملة حقاً .. حين يُحَاول .. وحين يتعثر .. وحين يشبّ و ينمو .. !

لنقرأ في الإنجيل هذا النبأ :

« .. في تلك الساعة ، تقدم التلاميذ إلى يسوع قائلين فمن هو أعظم في ملكوت السماوات .. ؟

« فدعا يسوع إليه ولداً وأقامه في وسطهم ، وقال : الحق أقول لكم ، إن لم ترجعوا وتصيروا مثل هؤلاء الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السماوات ..

« فمن وضع نفسه مثل هذا الولد ، فهو الأعظم في ملكوت السماوات ..

« ومن قَبِلَ ولداً واحداً مثل هذا ، فقد قَبِلَني ، ومن أعثر أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بي ، فخير له أن يعلق في عنقه حجر الرحى ، و يغرق في لُجّة البحر » .. !!

إن هذا الحَدَب العظيم على الطفولة الإنسانية ، يمثل حَدَباً أعظم على كل ما في الحياة من خير ، وجمال ، وصدق ، وسلام ، وصعود ..

وكل من يُعْثِر واحدة من هذه القيم التي تزين الحياة وتنمّيها ، فقد أعثر طفلاً من أطفال الله الذين يحبهم ، ويحرسهم ، و يرعاهم ..

ولأنّ الحياة عنده ، تعني الازدهار والاستمرار، كان كثيراً مايشبِّهها بالحقل ، و يشبِّه نفسه بالزارع المثابر..

والحياةلَدَى المسيح ، هي الحياة .. خيرها ، وشرها .. حلوها ومرها .. خطأها ، وتجربتها ..

وهو يحبها جميعاً .. ويحنو عليها جميعاً .. حتى في شقائها ، وفي أخطائها ..

ضرب لنفسه ذات يوم مَثلاً :

« إنساناً زرع زرعاً في حقله .. وفيما الناس نيام ، جاءه عدوه وزرع ــ زواناً ــ في وسط الحنطة ، ومضى ..

« فلما طلع النبات وألقى ثماره ، ظهر الزوان بجانب الحنطة ، فجاءه خدمه ، وقالوا له : ياسيد ، أليس زرعاً جيداً زرعت في حقلك ، فمن أين له هذا الزوان .. ؟؟

« قال لهم : إنسان عدو، فعل هذا ..

« قالوا له : أنذهب، فنجمعه ؟

« قال لهم : لا ، لئلا تقلعوا الحنطة مع ــ الزوان ــ وأنتم تجمعونه » ... !!!

انظروا حنانه على الحياة ، وأحيائها ..

طالعوا برّهُ بفضائلها ، و بأخطائها ..

إن الزرع الجيد ، هم الناس الطيبون ، والزرع الرديء ، هم الناس الخطّاؤن ..

وإنه ليرفض أن يقتلع الزرع الرديء رفقاً بالطيب، حتى لا يُجْتث معه ، و يذهب بَدَداً ..

ولكن ؟ أكان يعني إسلام مصير الطيب للخبيث .. ؟؟

كلا ، فالمسيح لايَدَع الرحمة تبطل العدل ، ولا يتأتّى لبرِّه العظيم أن يعتاق سننَ الكوْن ، ونظام الحياة .

ومن أجل هذا ، أتمّ المثل الذي ضربه ، فقال :

« .. دعوهما ينموا .. كلاهما معاً إلى الحصاد ..

« وفي وقت الحصاد ، أقول للحاصدين :

أجمعوا أولاً ــ الزوان ــ وأحزموه حزماً ليحرق .. وأما الحنطة فاجمعوها إلى مخزني » .. !!

ترى ، لو أمكن تحويل هذا ــ الزوان ــ إلى زرع طيب ، وحِنطة جيدة .. أيكون مصيره الحرق أيضاً .. ؟؟

بالبداهة ، لا .. وهنا يُتم حرص المسيح على الإنسان وعلى الحياة دورته ، فيبذل جهده ليحوِّل ــ الزوان ــ إلى زرع نضير، وقمح وفير..

يُحوِّل الشرّ إلى خير.. والإنسان الضالّ إلى إنسان أمين مستقيم .

« أنا ماجئت لأدْعُوَ أبراراً للتوبة ، بل خطائين » .

■ □ ■

« ماجئت لأهلك أنفس الناس ، بل لأخَلِّص » .

■ □ ■

ولقد أحبَّ « محمد » الحياة حباً عزيزاً نقياً ، وكان لها صديقاً ، أيَّ صديق .. !!

أحبها في كل مظاهرها ، ونَبضها ..

فإذا هطل المطر، سارع إليه كاشفاً عن صدره ، ليتلقّى رذَاذَه النديّ الرطيب وليس بينهما حجاب ..

وإذا بزغ الهلال ، استقبله في إخبات وحفاوة ، وناجاه قائلاً :

« ربي وربك الله » ..

و يسير بين الحقول ــ وما كان أندرها فى بلده ــ فإذا وقعت عيناه على براعم تتفتح ، دناَ منها ، ومسّها بيد حانية ، ثم انحنى عليها ، ولثمها بفم شكور، وغمرها بفيض من مودته وصداقته ، ثم همس إليها قائلاً :

« عام خير و بركة ، إن شاء الله » .. !!

وإذا طلعت الشمس استقبلها داعياً مبتهلاً .. وحين تغرب ، فلها منه تحية الوداع ..

ولكأنما سارع الله إلى هواه ، وشاء أن يزكي صداقته الحميمة للكون، والحياة ، فأقسم في قرآنه الكريم بـ « الليل ، إذا يغشى .. والنهار، إذا تجلى .. » وأقسم بـ « الشمس وضحاها والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جَلاّها » ..

لقد احترم الرسول صلى الله عليه وسلم الحياة في كل حيّ .. في الإنسان .. والحيوان .. والطير..

في الأبيض .. والأسود.. والأصفر..

في عظمتها .. وفي بؤسها ..

مرت به ذات يوم جنازة ، فوقف لها في خشوع .. حتى إذا جاوزته قال له أصحابه : يارسول الله ، إنها جنازة يهودي .. فأجابهم :

« سبحان الله .. !! أليست نفساً » .. ؟؟ !!

ولم يُطِقْ أن يرى الحياة تتعذب في « هِرّة » فقال محذراً :

« دخلت امرأةٌ النار في هِرّة حبستها ، فلا هي أطعمتها ، ولا هي تركتها » ..

بل أراد أن يملأ الأفئدة بتقديس الحياة ، حتى لا يبقى فيها مكان ــ أي مكان ــ لامتهانها .. وساق هذه القصة القصيرة ، والمثيرة :

« بينما بَغِيٌّ تسير ذات يوم ، إذ رأت كلباً يلهث من العطش ، فخلعَت مُوقَها أي نعلها ــ وَأدْلَتْه بحبل في بئر ، وملأته ماء ، وسقت الكلب ؛ فشكر الله لها ، وأدخلها الجنة » .. !!

وَحُبّه للحياة ، جعله يرفض أن يحياها مترفاً ، لأن الترف يذهب ببهجة معاناتها ..

« نحنُ قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا ، لا نشبع » ..

ورفض أن يحياها متجبّراً ، لأن التجبُّر افتيات على قداستها ..

« إنما أنا بشر مثلُكم » ..

ورفض أن يعزله الجهل عن حقائقها ..

« رب زدني علماً » ..

■ □ ■

« اطلبوا العِلم ولو في الصين » ..

ولم يحدث قط أن تحدث القرآن عن الحياة حديث استخفاف وتحذير إلا وهي مقرونة بكلمة « دنيا » ..

« الحياة الدنيا ، لعب ولهو» ..

« وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» ..

« وأترفناهم في الحياة الدنيا » ..

وقال عن الذين يعيشون كالأنعام ، لا دور لهم فى الحياة :

« إن هي إلا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا » ..

فالحياة المقرونة بهذا الوصف ..

الحياة « الدنيا » ..

الحياة الصغيرة الضئيلة ، التي لا تحليق لها ، ولا تبرير فيها ، هي التي يذكرها القرآن دوماً في مجال الاستخفاف ..

أما الحياة العظيمة ..

الحياة الصالحة ، فالمسيح خبزها .. ومحمد صديقها ..

■ □ ■

قلت : إن علاقاتنا السديدة بالله .. وبأنفسنا .. وبالعالم .... وبالكون جميعه .. تمكّننا من استثمار وجودنا ..

وقلت : إن استثمار الوجود يعني أننا نمارس الحياة ..

وأقول : إننا على أبواب هذه الممارسة نلتقي بعلاقات أخرى تربطنا بالحياة ، وتشدنا إليها ..

وكلما كانت هذه العلاقات صافية ، صادقة ، جادة .. كانت الحياة بالنسبة لنا فرصة عظيمة مباركة ..

أما إذا اعتور هذه العلاقات الزيف ، والانحراف ، والكذب ، فإن الحياة ـــ حياتنا ـــ تفقد جمالها ، وقيمتها ..

وقد نستطيع أن نتصور هذه العلاقات في :

- الحب ...
- الصدق ...
- العمل ...

كل أشياء الحياة ، بينها مودّة وإلاف .. حتى الخير والشر الذين يبدوان لنا نقيضين لا يتفقان ، وضِدّين لا يجتمعان .. يسرى بينهما « شِرْ يَان » خفيّ من التجاذب والتعاون .. وكثيراً ماتعمّى السُّبلُ على الخير، فيتقدم الشر و يفتح أمامه الطريق .. !

والأرض ، وما حولها من كواكب ، تألف الشمس ، وتحبها ، وتنجذب نحوها ..

ونحن ننجذب إلى الأرض في حنان ، واضطرار..

وهكذا ، فالحب الذي نسميه « جاذبية » ليس مجرد فضيلة ، ولا مجرد عاطفة .. إنما هو « قانون » يحفظ لأصحابه الوجود ، والبقاء ..

وسكان هذا الكوكب ــ نحن البشر ــ في حاجة أكيدة ، لإدراك هذه الحقيقة إدراكاً سديداً ..

و بالأمس .. الأمس البعيد ، الذي أرسل فيه محمد ، والمسيح ، كنا أشد حاجة لهذا الإدراك ..

فغرائزنا التي خرجنا بها من الغابة .. ونظُمنا الملأى بالتناقضات .. كثيراً ما تجعل منا خصوماً وأعداء ، والحب منتصر حتماً آخر الأمر، لأنه كما أسلفنا ، ليس عاطفة ، بل « قانوناً » .. بَيْدَ أن ذلك لا يعني السكوت عن دعوة الناس إلى ممارسة هذا القانون ، وإحياء شعائره ، والتزام جادّته ..

ولقد جاء الرسولان الكريمان ليناديا الخليقة إليه .. الى الحب ، والإخاء ..

وأروع ما في دعوتهما للحب من شواهد ، هو إسقاطهما ذنوب المتحابين في الله ، وجعلهما « الحب » رحمة واسعة ، تذوب في دفئها ، الخطايا والآثام .

فالمسيح وهو يفسر سبب المغفرة الشاملة التي بَشَّرَ بها الخاطئة ، يقول :

« لقد أحبّت كثيراً ، فغَفر لها كثيراً » .. !!

ومحمد ...

يُسَاق إليه ذات يوم رجل من المسلمين ، كان قد اعتاد احتساء الخمر.

ولم يكد أصحاب الرسول الجالسون معه يبصرون الرجل قادماً ، يُمْسِك بعضُ الصحابة بتلابيبه ، حتى قالوا في ازدراء وضجر: « لعنه الله ، ما أكثر ما يُؤتى به شارباً » .. !!

ولكن الرسول لا يستريح لما يسمع منهم ، فيقول لهم في اهتمام :

« لا تلعنوه ، فإنه يحب الله ورسوله » .. !!

وهكذا ، يقيم المسيح والرسول ، المعيار الحق لفضيلة الإنسان ــ أى إنسان ــ وهذا المعيار.. هو.. الحب ..

وحب الله ورسوله هنا ، يمثل مجالاً أرحب مما قد يتبادر إلى أفهامنا .

إن حب الله ، يعني حب آثار رحمته جميعاً من بشر، وشجر وحجر.

يعني حب الحياة كلها ، والإنسانية التي هي زينتها ، ولبابها .

لقد غفر المسيح للخاطئة ، لأنها كانت تتصل بالحياة العظيمة عن طريق علاقة من أوثق علاقاتها ، وهي المحبّة .

ورفض محمد ، أن يُلْعن رجل سكير، لأنه كان يرعى في فؤاده نفس العلاقة .

وفى الوقت الذي تكون علاقتنا بالحياة قائمة ، وصادقة ، فإن أخطاء السلوك ، تفقد ضراوتها وقيمتها ، ما دامت لا تأخذ طابع التحدي والإصرار..

والحب ـــ كما قلنا ـــ أوثق علاقاتنا بالحياة .

ولقد يأخذ في مصطلحاتنا أسماء شَتَّى ، فتارة نسميه الرحمة ، وأخرى نسميه الإخاء ، أو التعاون ، أو البر ..

ولكن اسمه الحق سيظل كما هو الحب ..

وسيظل « أباً » لكافة العلاقات ، والقيم ، التي تربطنا بالحياة وتجذبنا نحوها .

وتكفير الخطايا بالحب ، على النحو الذي رأيناه الآن من الرسولين الكريمين يشير إلى تفسير جديد للخطيئة وللذنْبِ ..

فأفعالنا التي توصف بأنها خطايا ، إنما حملت هذا الوصف ، لأنها تثبط ولاءنا للحياة ، وتؤذي علاقتنا بها ..

وتكون أفعالنا شرِّيرة ، لا بقدر ما تحمل من شَرّ ، فليس للشرِّ وجود ذاتي .. بل بقدر ما تعزلنا عن العلاقات الرشيدة الصحيحة الفاضلة التي تربطنا بالحياة ، وتربط الحياة بنا ..

لذلك صوّرا فرحهما العظيم ، بل وفَرَح الله من قبل ، بالإنسان التائب .. أي الإنسان الذي يعود إلى تصحيح موقفه من تلك العلاقات التي تصله بالحياة ، و يعيش بسببها حياً ، وكريماً .. !!

ضرب المسيح لهذا مثلاً :

« .. ابناً أخذ المال الذي أعطاه له أبوه ، وسافر إلى كورة بعيدة ، وهناك بذّر ماله .. فلما انفق كل شيء ، حدث جوع شديد و بدأ يحتاج ، واشتغل أجيراً لواحد من الناس ، يرعى له خنازيره ..

« وكان يشتهي أن يملأ بطنه من الخرنوب الذي كانت الخنازير تأكله ، فلم يعطه أحد ..

« فرجع إلى نفسه ، وقال : كم أجير عند أبي يفضُل عنه الخبز ، وأنا أهلك جوعاً .. أقوم وأذهب إلى أبي ، وأقول له : يا أبي ، أخطأت ولستُ مستحقاً أن أدْعى لك ابناً ، اجعلني كأحد أُجْرَائك ..

« وقام ، وجاء إلى أبيه ..

« وإذ كان لم يزل بعيداً رآه أبوه ، فتحنّنَ وركض ، وأسرع إليه وقبّله ، وقال لعبيده :

« أخرجوا الحُلَّة ، وألبسوه ، واجعلوا خاتماً في يده ، وحذاء في رجليه ، واذبحوا العجل المسمّن وأطعموا الناس ، ونادى قائلاً :

« لنفرح ، ونُسرّ ، لأن ابني هذا كان مَيِّتاً ، فعاش ، وكان ضالاً ، فَوُجد » ..

و بعد أن ينتهي المسيح من ضرب هذا المثل يدير بصره الودود على الوجوه المصغية إليه ، و يقول :

« هكذا الله .. أبوكم السماوي .. يشتاق أن يرى أبناءه البشر يعودون إليه تائبين » .. !!

وضرب الرسول مثلاً :

« للّهُ أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه ، من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة .. فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه .. فأيِسَ منها .. فأتى شجرة ، فاضطجع في ظلها ، قد أيس من راحلته ..

« فبينا هو كذلك ، إذ هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ، ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت (عبدي) وأنا (ربك) .. أخطأ من شدة الفرح » ..

و يأخذ الرسولان الكريمان قلوبنا الى الحب أخذاً وثيقاً ، بما يتركان لنا من قدوة تتمثل في سلوك صادق وعظيم .

فالمسيح في إحدى أمسياته الأخيرة على الأرض ، يقوم عن طعام العشاء، و يأخذ « منشفة » و يتزربها ، ثم يصب الماء في آنية ، و يدعو تلامذته ، فيغسل لهم أقدامهم واحداً ، واحداً ، ثم يجففها بالمنشفة التي معه ..

و يغشى تلامذته الحياء والفزع ، ويحاولون منع المسيح ، لكنه يواصل عمله العظيم ، وهو يقول لهم :

« الآن تعلمون تفسيره »، ..

و بعد أن ينجز غسل أقدامهم وتجفيفها ، يقول :

« أنتم تدعونني معلماً ، وسيداً .. وحسناً تقولون ؛ لأني كذلك ..

« فإن كنتُ ، وأنا السيد المعلّم ، قد غسلتُ أرجلكم .. فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض » .. !!

و يُخْصب محمد واحة المحبة بكل عاطفة ريّانة طيبة ، فيوصي الناس قائلاً :

« إذا أحب أحدكم أخاه ، فليخبره أنه يحبه » ..

■ □ ■

و يقول :

« وإذا آخى الرجلُ الرجلَ ، فليسأله عن اسمه ، واسم أبيه ، وممّن هو.. فإنه أوصلُ للمودّة » ..

« يقول الله عز وجل : المتحابون لجلالي ، لهم منابر من نور، يغبطهم النبيّون ، والشهداء » ..

■ □ ■

« إن من عباد الله أناساً ، ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة ، لمكانهم من الله تعالى .. !

« قالوا : يا رسول الله ، تخبرنا من هم .. ؟

« قال : هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها .. فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس .. وقرأ هذه الآية ..

« ــ ألا إن أولياء الله لا خَوْف عليهم ولا هم يَحْزَنون ــ » .. !!

إن الرسول يرفع الحب فوق مستوى المنفعة والغرض .. فيقول : « تحابّوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها » .

وهو أيضاً يقرر أن الحب يغطي ضعفنا ، و يرفعنا الى كل مكانة عالية ، عجزت أعمالنا عن أن تصعد بنا إليها .. وذلك حين يسأله « أبوذر » :

يا رسول الله ، الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل عملهم ؟

فيجيبه الرسول :

« المرء مع من أَحَبّ » ..

إن الحب هو الزاد الذي يردُّ عن البشرية سَغَبها المضني ، وهو الرِّيُّ الذي يدفع عنها ظمأها القاتل .

وهي لا تستطيع أن تحيا ما لم تحب ، لأن الحب هو الآصرة العظيمة التي تجمعها بالحياة ، وتمنحها الجناحين الذين تحلّق بهما وتطير .

■ □ ■

والصدق ...

إنه العلاقة الثانية التي ترتبط بها مع الحياة ..

ومكان الصدق من الحب ، جد قريب ..

فنحن نكذب حين نخاف ..

نكذب على الناس حين نخافهم .. ونكذب على القانون ، حين نخافه .. بل نكذب على أنفسنا ونخدعها ، حين نخافها ..

ومع الحب ، لا يوجد خوف .. وإذن ، لا يوجد كذب .. !

والصدق هنا ، أبعد مدىً ، وأرحب مفهوماً من مجرد الإخبار بالواقع ..

أعني ، ليس هو قول الحق وحسب .. بل هو أن نعيش الحقّ نفسه .

هذا ، هو الصدق ، كعلاقة تربطنا بالحياة ، وهو يعني تحرير أنفسنا من كل ما يجعلها تحيا حياة زائفة مزوَّرة .

يعني أن يشتملَنا تطابق واضح ، بين ظاهرنا و باطننا .. بين حياتنا الباطنة ، وحياتنا الظاهرة .

و يعني أن نكون قوَّامين بالقسط ، ولو على أنفسنا .

و يعني أيضاً ، بذل أقصى الجهد في كل عمل نعمله ، وفي كل موقف نتخذه ..

ولقد علّمنا هذا محمد ، والمسيح ..

لقد شنَّا على الرياء هجوماً عنيفاً .. وأخبر الرسول أن « ذا الوجهين ، يُدْعى عند الله كذاباً » .

فالرياء كذب .. والكذب تزييف لعلاقة ثمينة من علاقات الحياة ، وقِيَمها ، وهي الصدق .

من أجل هذا ، كان الرسولان يحتفيان بكل مخطئ يتقدم ، وفي يده وثيقة إدانته .

هذا الذي يسميه عصرنا الحديث ، بـ « النقد الذاتي » ..

ولطالما ضرب الله برسوله المَثل ، واصطنع منه القدوة ..

فإذا أخطأ ــ مثلاً ــ مع إنسان ضرير .. ولو بحسن نية ، وقف في محراب الصلاة ، والناس من ورائه صفوفاً ينصتون له ، وهو يتلو عليهم وثيقة اعترافه ، وأوْبَته :

« عَبَسَ وتولّى ، أن جاءه الأعمى ، وما يُدْرِيكَ لعله يَزَّكَّى ، أو يذكَّرُ فتنفعه الذكرى أما من استغنى ، فأنت له تصدَّى ، وما عليك ألا يزكى ، وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى ، فأنت عنه تلهَّى .. ؟ كلا » .. !!

وإنه ليخدش أعرابيّاً ذات مرة ، دون عمد ، فيصرُّ على أن يخدشه الأعرابي مثلها .. !!

و يقف فوق المنبر في جلال عظيم ، ليقول لأصحابه الذين يستمعون له :

« من كنت جلّدت له ظهراً ، فهذا ظهري فلْيَقْتَدْ منه ..
ومن كنتُ أخذت من ماله شيئاً فهذا مالي فليأخذ منه » .. !!

إنه لم يجلد في حياته ظهراً ، ولم يؤلم لأحد ظفْراً .. ولكنه الصدق المطلق مع الحياة ، يُمارسه الرسول في أنقى صُوَره ، وأوفاها بالذمّة والطُّهر..

وإذا كانت حياته لم تتلفّع قط برياء أو ضعف ، فهي كذلك لم تتلفّع قط بغرور، ولا بصَلَف ..

لقد كان يسابق زوجته ، ويخصف نعله بيده ، و يرقع ثوبه بنفسه .

ولـقـد حلب شاته .. وخدم أهله .. وحمل الطوب مع أصحابه في بناء مسجده .. وربط على بطنه الحجر من الجوع .. !!

وكان إذا سار في الطريق ، ومعه أصحابه ، دعاهم ليتقدّموا عليه ..

وإذا قدم عليهم ، وهم جلوس ، جلس حيث انتهى به المجلس ..

وكان يقول لهم دائماً ، حين يدعونه لتكريم خاص :

« إني أكره أن أتميَّزَ عليكم » .. !!

هذا هو الصدق مع الحياة ..

أن نعيشها ، عادلين ، طيبين ، واضحين ، وُدعاء ، بُسَطاء ..

وأن نمارس مسئولياتها ، ونعانق واجباتها ، لا أن نتبذّخ بما فيها من فراغ وتَرَف وجاه ..

اقرأوا ..:

« .. وفيما كان يسوع صاعداً إلى أورشليم ، أخذ الاثني عشر تلميذاً على انفراد في الطريق .

« وقال لهم : ها نحن صاعدون إلى أورشليم ، وابن الإنسان يسلّم إلى رؤساء الكهنة ، والكتبة ، فيحكمون عليه بالموت .

« .. حينئذ ، تقدمت إليه أم ابني زبدى مع ابنيها ، وسجدت ، وطلبت منه شيئاً ، فقال لها : ماذا تريدين .. ؟ قالت له : أن يجلس ابناي هذان ــ يعقوب ، و يوحنّا ــ واحد عن يمينك ، والآخر عن اليسار في ملكوتك ..

« فأجاب يسوع وقال : لستما تعلمان ما تطلبان .
« أتستطيعان أن تشربا الكأس التي سوف أشربها أنا » .. ؟؟ !!

ما أجزلها من عبارة .. !!

فالحياة ، ليست منصباً فَخْرِياً ، ولا وُجُوداً شَرَفِياً ..

إنما هي عمل جسيم دائب صادق ..

وهنا نلتقي بعلاقة أخرى من علاقاتنا بالحياة ..

■ □ ■

إنها العمل ...

والحياة بغير عمل ، تفقد ذاتها .. فهي عمل مستمر ، وصاعد ..

هي حركة أزلية ، وأبدية خالدة .. كل شيء فيها يموج بالحركة والمثابرة ..

هذه المياه الجارية .. هذه الرياح السارية .. هذه الأشجار ، والأزهار .

بل هذه الصخرة التي تبدو جامدة .. والخشبة التي نحسبها خامدة .

كلها ، وكل أشياء الحياة تُزاول حركة دائبة ، ونشاطاً موصولاً .

ولكن العمل قد ينحرف ، فيفقد على الفور مزيته ، وقيمته .

من أجل هذا ، عُني « خُبز الحياة » كما عُني « صديقُها » بأن يُزكيا جميع الخصائص التي تحتفظ للعمل بقيمته وبنقائه .

لقد أراد للعمل أن يكون دائماً :

جليلاً ..

نافعاً ..

مستمراً ..

صاعداً ..

فالعمل الجليل ، النافع ، المستمر المُوَلّي وجهه شطر الأمام .. لا الزاحف إلى الخلف ..

هذا العمل يمثل أسمى واجباتنا ، كما يمثل علاقة كبيرة من خير علاقاتنا بالحياة ..

وجلال العمل ، يعني الارتفاع بقدراتنا إلى مستوى الكمال الميسور.. حتى نحقق بها عظائم الأمور، ولا نقِنع بصغارها ..

يقول الرسول في هذا :

« إن الله يحب معالي الأمور.. و يكره سَفْسَافها » .

و يقول المسيح ، مطالباً الناس بمز يد من العمل ، و بعيد من الهمة :

« كل من أعطى كثيراً .. يُطْلب منه كثير» ..

و يقول محمد :

« إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » ..

و يُحَذِّر من الأعمال الناقصة المبتورة ، و يؤثر العمل المستمرَّ، ولو كان قليلاً ، على العمل الأبتر، ولو كان كثيراً .. و يضرب لهذا مثلاً جميلاً حين يقول :

« فَإِنَّ المنْبَتَّ ، لا أرضاً قطع .. ولا ظهراً أبقى » .. !!

وهو يريد من العمل أن يكون واعياً .. وأن يكون في خدمة التقدم الإنساني .. ولا يكون انتكاساً أو ردَّة إلى الوراء ..

وإنه لعظيم باهر، وهويقول في هذا ما معناه :

« يُذاد أُناس من أُمَّتِي عن الحوض يوم القيامة ! فأنهض لأشفع لهم ، فيقول الله لي :

« يا محمد ، لا تفعل .. إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ..

فأقول : يا رب ، وما أحدثوا .. ؟

فيقول سبحانه : إنهم كانوا يمشون بعدك القهقرى على أعقابهم » .. !!

والرسول ـــ كما ذكرنا قبلاً ـــ وكذلك المسيح ، كانت دعوتهما حركة جديدة سائرة نحو المستقبل ، متجهة إلى الأمام دَوْماً .

وإنها ليُجلاّن العمل ، ويهيبان بنا أن نرتفع به فوق كل عرض رديء ، ونجنبه كل انحراف وزيف .

والإنسان الذي يقضي حياته في عمل صادق نافع ، يصير موضع رعاية الله وتقديره ..

« لا أُضِيع عمل عامل منكم ، من ذكرٍ أو أُنثى »

ولقد لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً أحد أصحابه ، وحين صافحه ، أحسّ في كفه خشونة .. فسأله :

« يا سعد ، ما بال كفّيك قد أمْجَلتا » .. ؟ !

فأجابه سعد :

ـــ من أثر (العمل) يا رسول الله .

فرفع الرسول كفّي سعد إلى فمه وَقَبَّلهما ، ثم قال :

« كفّان ، يحبهما الله ، ورسوله » .. !!

■ □ ■

هكذا ، كان برُّ محمد والمسيح بالحياة ..

لم تجمعها بها عاطفة عابرة ، بل وعي رشيد ، وإدراك سديد لقيمتها ، ودَعْم هائل لكل القيم والقوى التي تبعث فيها الازدهار والتألُّق ...

وعلى رأسها جميعاً ما ذكرناه ــ الحب ــ والعمل ..
ولقد عاشا حياة مُترعة بالحب ، و بالصدق ، و بالعمل ..

وكان لهما مع الزمان رحلة من أمجد ، وأنفع ، وأبقى رحلاته .

واليوم ، ونحن نشيد من آمالنا ، ومن إصرارنا بناء عزم جديد قادر، نريد أن نحمي به حياتنا من الدمار، ننحني إكباراً لهذين الرائدين الجليلين ولإخوة لهما سبقوهما بالإيمان و بالسعي ، من أجل أن تبقى الحياة مزدانة بأحياء مباركين .

وإذا كانت الحروب هي شر مايَحيق بالحياة من خطر..
وإذا كان « محمد ، والمسيح » قد أعلنا في ولاء وإصرار، حق الحياة في الحياة ..

فإنه لمن الضروري إذن ، أن نُبصر موقفهما من السلام ، وكيف أراداه ، وعلى أية صورة تمثَّلاه ..

وإنه لمن الخير لأنفسنا أن نفقه جيداً الدور الذي قام به محمد وصاحبه لإقرار السلام في الأرض .. وجعله شعيرة من شعائر الله .. !!

■ □ ■

السلام ...
عندما ترنّ في سمع الظامىء العطشان كلمة «ماء» ..
وفي سمع الجائع السَّغْبان كلمة « خبز» ..

وفي سمع المشرف على الغَرَق ، المُتخاذل تحت ضربات الموج كلمة « شاطىء » ..

لا يكون لهذا الرنين مهما يكن صادقاً ، إلا قليلاً جداً ، مما هو للرنين الصاهل القوي المفرح ، الذي تتركه في عصر الذرّة كلمة « سلام » .. !!

ولو أن الحرب ، وحدها هي التي تتهدد وجودنا كله ، لهان الأمر ، أو كاد ..

غير أن الذي يحاصرنا بأخطاره الماحقة ، والذي تعتبر الحرب نفسها نتيجة له .. هو التفكير المُلْتاث المغرض ..

وإني لأذكر الفزع الشديد الذي غشيني ذات يوم قريب ، حين طالعت خطاباً ، أو تصريحاً لرجل مسئول في أوروبا ، يشغل منصباً خطيراً ، يقول :

« لابد من الحرب ، دفاعاً عن الحضارة المسيحية » .. !!

وقلت لنفسي يومها :

مسيحية ، وحرب .. ؟؟

أي اتفاق « سعيد » هذا .. ؟؟ !!

إن هذه العبارة ، التي تقال في عصرنا هذا ، المتحضِّر كثيراً ، والمتقدم جداً .. (!) لتشير إلى « الفضيلة » التي طالما تنكَّرت فيها « رذيلة » العدوان والبَغي ..

فعظم الحروب التي أثخنت جروح الحياة ، كان لها منطق تسويغي ، وحجة تبرر قيامها ، وتمنحها المشروعية ، وجواز المرور .. !!

فباسم الدفاع عن الأديان تارة .. وباسم الحرية ، وحماية حقوق الإنسان تارة أخرى .. وباسم تمدين الشعوب المختلفة .. وباسم المجال الحيوي للدول التي ضاقت الأرض فيها بأهلها ..

وباسم أشياء كثيرة ، كانت تبدو ، وكأنها منطقية وعادلة .. قامت حروب صبغت الأرض بالدم .. وغَطَّت ترابها بالأشلاء والجماجم ..

وكان وراء تلك الحروب .. ووراء شعاراتها الكاذبة ، ذلك الذي أسميناه آنفاً .. بالتفكير المُلْتاث المغرض ..

وهو « مُلتاث » .. لأنه يجهل إرادة التاريخ ..
و « مغرض » .. لأنه يُقاومها و يتحداها ..

أي أنه بتعبير آخر.. كان وراء تلك الحروب ، جهل بإرادة التاريخ ، وعصيان لها .

وهنا ، نضع أيدينا على « نقطة البدء » في موقف محمد والمسيح من الحرب ، ومن السلام ..

وهنا — أيضاً — تَفْنى تلك الشُّبهات التي تُلقي في رُوع الكثيرين منا ، أن لمحمد من الحرب موقفاً يُغاير موقف المسيح ..

إن من يحترم الإنسان ، والحياة ، مثلما احترمهما المسيح والرسول ، لن يكون حرصه على السلام إلا عظيماً .

فالسلام ، هو المجال الآمن الذي تترعرع فيه مواهب البشر ، وقدراتهم ، وهو السلوك الأوحد اللائق بأناس يجمعهم على الأرض عناء مشترك .. ورجاء مشترك .. وسعي مشترك ..

ناس ، أبوهم واحد .. وأمهم واحدة ..

ناس ، ليسوا — مهما يتباغضوا و يتباعدوا — سوى إخوة وأشقاء ..

من أجل هذا ، كانت أولى الحقائق الجديرة بأن يرتدّ إليها صوابهم ، هي ذي ..

ومن هنا ، بدأ المسيح وأخوه دعوتهما للسلام ..

قال المسيح لتلامذته :

« معلمكم واحد ، المسيح .. وأنتم جميعاً إخوة » .

وقال محمد :

« كونوا عباد الله إخواناً .. كما أمركم الله تعالى » .

ولم يكن « الإخاء » مجرد كلمة يُرددانها . بل كان كما رأينا من قبل وخلال عرضنا لموقفهما من الإنسان .. عقيدة ، وسلوكاً .

لقد ذكرنا في مبتكر هذا الكتاب أن حياة كل من الرسولين العظيمين، كانت طاهرة، لا شِيَة فيها .. ولم يحدث أن أخذ عليهما شيء ـ أي شيء ـ من التزيد والادّعاء.

ولقد دَعَوا إلى الرحمة .. فكان لابد أن يكونا رحيمين .. ودَعَوَا الى العدل، فكان لابد أن يكونا عادلين.

ودَعَوَا إلى السلام، فكان لابد أن يكونا مسالمين.

ولقد كانا كذلك فعلاً. وعند أكثر مستويات الكمال البشري ارتفاعاً عاشا حياتهما، ومارسا دورهما الفذ العظيم.

إن أقوالهما في السلام، لمشرقة إشراق الصباح المبلل بقطر الندى.

وإن سلوكهما مع السلام، لمجيد.

إن الناس يحاربون، ليفرضوا مشيئتهم.

ولقد ألغى المسيح فرض المشيئة هذا حتى لو كانت مشيئة عادلة وفاضلة.

قال لتلامذته وهو يوصيهم:

« وأية مدينة دخلتموها، ولم يقبلوكم فاخرجوا الى شوارعها وقولوا: حتى الغبار الذي لصق بنا من مدينتكم ننفضه عنا » !

والناس يُحاربون من أجل الأرض يستعمرونها، و يستغلونها.

ولكن استعمارهم هذا وغَلَبهم ذاك، لن يدوما .. وسيكون للمسالمين الودعاء جميع المستقبل، وجميع المصير:

« طوبى للودعاء، لأنهم يرثون الأرض ».

وهو ــ أعني المسيح ــ يضع مبدأ هائلاً ، ورشيداً في العلاقات الإنسانية ، فيقول :

« من ليس علينا .. فهو معنا » .

و ينفر من الحرب نفوراً شديداً ، ويحذر من عُقباها ، فيقول :

« كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب .. و بيت منقسم على بيت يسقط » .

ويحب الحياة وديعة ، مزدهرة ، حافلة بالمباهج والحب ، و يبث في الأفئدة طمأنينة ، وأملاً ، ويخفف عنها روعها ، و يتمنى للحياة عمراً طو يلاً في هذه الكلمات :

« إذا سمعتم بحروب وقلاقل ، فلا تجزعوا .. لأنه لابد أن يكون هذا أولاً .. ولكن لا يكون المنتهى سر يعاً » ... !!

كم هي عذبة ، وطيبة ، ومتفائلة ، كلماته الحانيات هذه .. « لا يكون المنتهى سر يعاً » .. ؟؟ !!

وما ترك ــ ابن الانسان ــ ثغرة ، تستطيع البغضاء ، و يستطيع الشر أن ينفذا من خلالها إلى الحب ، وإلى السلام ، إلا أوصدها ، وتحاماها .

ومن الحب ، والسلام ، والإيمان ، والطهر ، شاد حول الحياة سياجاً لا يرام .

فدعوته المضروب على خده الأيمن ، أن يعطي لضاربه خده الأيسر .

ودعوته من اغتُصب رداؤه ، أن يترك الإزار أيضاً .

وتحذيره المجلجل ، للذين تجيء منهم العثرات المفنية لهذا العالم .

وإعلانه ، أن « كل من غضب على أخيه باطلاً ، يكون مُستوجب الحكم » .

وقوله :

« إن أعثرتك يدُك فاقطعها » .

■ □ ■

« ما جئت لأُهلِك ، بل لأخلِّص » .

■ □ ■

« أر يد رحمة .. لا ذبيحة » .

كل هذا الهدى ، سياج منيع أقامه المسيح حول الحياة .

إنـه لم ينـتـظـر حتى يسيء الناس إلى الحياة بالقتل .. فتلقّاهم دون ذلـك بابعاد بعيدة .. تلقاهم عند الغضب ـــ مجرد الغضب ـــ وصاح : هذا قتل .. !!

فـهل يعلم هذا ـــ جيداً ـــ الذين يؤمنون بالمسيح في زماننا ، إنه لخليق بهم أن يعلموا .. !

وخير لهـم ألا يضلوا في زحمة البغضاء والطمع ، عن كلماته المضيئة .. ومشيئته السديدة .

■ □ ■

ولمـثـل هـذا الـذي يـعـمل من أجله العاملون .. عمِلَ إنسان من أكثر أبناء الحياة برّاً بها ، وغيرة عليها .

إنه « محمد » .

لقد وقف يبلّغ عن ربه في ولاء الصادقين ، و يقين المرسلين أنه :

« مـن قـتـل نـفساً بغير نفس ، أو فساد في الأرض ، فكأنما قتل الناس جميعاً » .

انظروا ...

إن الحياة لا تتجزأ .

ليس هناك حياة لي .. وحياة لك .

إن الحياة كائن واحد .. وأي مساس بأي جزء منها ، مساس بها كلها ، وعدوان عليها جميعها .. !!

وكما اعتبر المسيح البغضاء كالقتل .. اعتبر محمد القطيعة قتلاً ، فقال محذراً منها :

« من هَجَرَ أخاه سنة .. فهو كسفك دمه » .. !

وإنه كذلك ليعلم أن الناس يتحاربون و يتقاتلون من أجل الأرض يستعمرونها ، فيحمي السلام من هذا السبب .. و يعلن أن من غيّر تخوم الأرض لينال شبراً ، ليس له فيه حق ، برئت منه ذمة الله ، ورسوله .. !!

ويختصم إليه اثنان : غرس أحدهما نخلاً في أرض الآخر .. فيقضي لصاحب الأرض بأرضه ، و يأمر صاحب النخل أن يخرج نخله منها .. فتضرب أصولها بالفؤوس فوراً .. !

و يقول في حديث زاجر عظيم :

« من اغتصب ــ شبراً ــ من أرض طوّقه الى سبع أرضين » .

و يعطي هذا المعنى مز يداً من التوكيد ، لعلمه بما يجره الغصب والطمع من شقاق ، ونزاع ، وقتال .. فيقول :

« من اغتصب مال أخيه بيمينه ــ أي بالقوة ــ حرم الله عليه الجنة ، وأدخله النار .. »

سأله سائل : يارسول الله ، وإن كان شيئاً يسيراً ؟ قال :

« وإن كان عوداً من أراك » !!

و يُسأل محمد ــ كما أسلفنا ــ عن أفضل الأعمال ، فيجيب :

« بذل السلام للعالم » .

و يربط الإيمان بالحب ليُنشئا معاً سلاماً للحياة وأمناً .. فيقول :

« والذي نفسي بيده ، لا تؤمنوا حتى تَحابّوا .. ألا أدلكم عن شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ . أفشوا السلام بينكم » .

و يرفع السعي من أجل السلام الى مكانة تفضل جميع العبادات فيقول في حديث رائع :

« ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة ، والصيام ؟ إصلاح ذات البين » !!

و يستبعد كل أسباب الشجار ، حتى التافه الضئيل منها ، ليقول :

« إذا مر أحدكم في مجلس ، أو سوق ، وفي يده نبل فليأخذ بنصالها لا يخدش بها أحداً » .. !

و يبلغ عن الله سبحانه قوله :

« ادفع بالتي هي أحسن السيئةَ » .

و يسأل سائل :

يارسول الله ، دلني على عمل ، إذا عملته أكون قد فعلت الخير جميعاً .

فيجيبه الرسول عليه السلام ، « لا تغضب » .. !

لقد تتبع الرسول كل أسباب البغضاء ، والحرب ، في سلوك الفرد ، وفي سلوك الجماعة ، فكافحها ونهى عنها .

ولعل سائلاً يسأل :

إذا كان محمد قد أنزل « السلام » من قلبه ، ومن شريعته هذا المنزل

الرفيع .. فكيف إذن حمل سيفه وحارب .. وكيف إذن ، جعل الجنة تحت ظلال السيوف ؟ !!

سؤال عادل ، ومنطق أمين ..

والإجابة عنه ترجع بنا الى نقطة هامة بدأنا بها حديثنا عن السلام .. إذ قلنا : إن الحروب تنشأ دائماً ، أو غالباً من سبب واحد ، هو جهل إرادة التاريخ ، ومقاومتها .

حيث يوجد هذا السبب ، يوجد لا محالة تحفز وحرب .

ذلك أن التاريخ ، الذي هو تطور إنساني زاحف ، لا رادّ لسيره .

التاريخ هذا .. ماض بالحياة إلى غايات جديدة دائماً .

وكل مرحلة جديدة منه ، تفرض نفسها بقوة الميلاد ، وبقوة الضرورة التاريخية التي أهابت بها لتجيء .

كما أن مرحلة قديمة مائلة للغروب ، تحاول التشبث والبقاء .

وتصطنع كل مرحلة لنفسها مؤمنين من الناس وأنصاراً ..

وهنا يقف الجديد ، والقديم وجهاً لوجه ..

وحين تكون هذه المواجهة تكون الثورات ، وتكون الأحداث الكبيرة .

وكلما أمعن أنصار المرحلة الآفلة في جهل إرادة التاريخ ، وفي مقاومتهم لوليده الجديد ، يكون الصدام أمراً محتوماً ..

وهذا ما حدث أيام الرسول عليه السلام .

قامت حروب .. كان سببها الجهل بإرادة التاريخ ، ومقاومة هذه الإرادة .

ولم تأت المقاومة من جانب محمد . بل من الجانب الاخر المعادي له .

أما محمد ، ودعوته .. فقد كانا يمثلان الجديد القادم .. يمثلان إرادة التاريخ نفسها ..

وهـذا واضـح تماماً ، من ظروف الدنيا أيام بعثته ، ومن طبيعة دعوته التي جاء بها .. ولقد أشرنا لهذا في الفصل الثاني من فصول الكتاب .

أنـا لا أحـاول هـنـا الـدفـاع عن الرسول ، ولا أحاول تبر ير نضاله .. فليس في حياته العظيمة كلها مايدعو لمثل هذه المحاولة .

وإنما أحاول افتراض أن « السلام » نفسه تجسّد وصار إنساناً .

فـاذا كـان هـذا الإنـسـان صـانـعاً تجاه الظروف المعادية التي ناوأت محمداً ..

إن الإجـابـة عن هذا السؤال يسيرة ، إذا نحن أدركنا المفهوم الصحيح للسلام ..

فـالـسـلام لـيـس هـروبـاً مـن المسئولية .. وليس إذعاناً لقوى الشر، وليس مسايرة للخطأ .. وليس عجزاً عن الاختيار، والممارسة ..

و بعبارة واحدة : السلام قيمة تعبر عن نفسها بالإيجاب ، لا بالسلب .

وأكثر الناس تقديراً للسلام ، وحاجة إليه ، رسول جاء يدعو إلى عبادة الله ، وتزكية النفس ..

إن السلام يمثل « الوطن » لدعوة من هذا الطراز..

وقـد لاذ محمد بهذا الوطن .. لا ير يد من الناس سوى أن يتركوه يبلّغ كـلـمـات ربـه .. ويمـارس واجـبـاً يملأ نفسه ، و يدعو دعوة لا تقاوم ، إلى التبشير به ، والعمل في سبيله .

وسارع ، فأعلن « تعايشاً سلمياً » عادلاً .

« لكم دينكم .. ولي دين » .. !!!

ولكن أعداء التار يخ ، لم يتركوه ، ولم يمهلوه ..

لم يذَرُوا دنيئة إلا ارتكبوها معه ..

حصبوه بالطوب ..

سلطوا عليه سفهاءهم ، فغمروه بروث البهائم ، وهوساجد يناجي ربه .

حاصروا أهله ، وعشيرته حصاراً اقتصادياً خانقاً .. !!

مارسوا شر الجرائم ، وأرذلها ، مع الفقراء والمستضعفين الذين اتبعوه .. !!

ثلاث عشرة سنة ، قضاها وسط مؤامرات لا تهدأ ، واعتداءات لا ترعوي .. وهو في صبره ، وفي حلمه ، وفي السلام الحق الذي يريده ويحبه ، ويتمنى دوامه ..

يمعنون في إيذائه ، وفي الكيد له .. فيمعن في الصفح عنهم ، وفي الدعاء لهم .

ولا تشغله جراحه الثاغبة ، وآلامه اللاهبة عن الابتهال من أجلهم :

« اللهم اغفر لقومي ، فإنهم لا يعلمون » .. !!

لنتأمل جيداً كلمة — لا يعلمون — فإنها تمثل إدراك الرسول لحقيقة المشكلة — جهل أعدائه بإرادة التاريخ ، التي هي إرادة الله من قبل .

وما داموا — لا يعلمون — فإن واجب الرسول أن يعلمهم ..

وهنا يتضح السر العظيم الجليل في صبر الرسول عليهم ثلاثة عشر عاماً ..

ويستبين فهمه الرشيد لحقيقة السلام ، الذي هو إيجاب ، لا سلب .. ومواجهة ، لا هروب .. !!

لقد كان محمد ، وهو يصبر على أذاهم ، ويعلمهم ، يمارس سلاماً حقيقياً ، فهو لم يحْلم عليهم ، ويصبر على هولهم .. خوفاً أو استسلاماً .

بل ، لأنهم لا يعلمون .. وعليه أن يعلمهم ..

لا يبصرون .. وعليه أن يفتح عيونهم ..

وهذا ، هو السلام ..

السلام الإيجابي ، الذي يواجه مسئولياته ، دون أن يحمله العدوان على الهروب ، ولا على المقاومة غير المشروعة .. !

ولكن هؤلاء ــ الذين لا يعلمون ــ يستنفدون ــ آخر الأمر ــ كل حقهم في المعرفة ، وكل فرصتهم في السلام ..

ذلك أنهم يصرّون إصراراً و بيلاً ، لا على التشبث بباطلهم فحسب .. بل وعلى خنق الدعوة وإبادتها .

وقرروا قتل محمد عليه صلاة الله وسلامه ..

وحتى بعد هذه الجريمة السافرة ، لم يشأ الرسول أن يقاوم .. على الرغم من أن المقاومة آنئذ ، صارت حقاً مشروعاً له ، بل وصارت تعبيراً آخر عن العدل ، وعن السلام ..

لم يشأ أن يقاوم ، وهاجر الى المدينة ..

ومن المدينة سارت الأحداث في الطريق الذي جعل المقاومة محتومة ولازمة ..

لم يقاتل الرسول ، حين قاتل ، من أجل توسع ، أو امتلاك ، أو سيادة بل حصر جهاده « في سبيل الله » .

وعبارة « في سبيل الله » هذه .. تمثل الإطار الذي خاض الرسول المعركة داخله .

ولا يكاد شيء يكشف عن ولاء الرسول للسلام ، مثلما يكشفه سلوكه في الحرب .

فعلى كثرة الغزوات التي خاضها ، لم يكن عدد الضحايا فيها جميعاً ، سوى بضع عشرات من كلا الفريقين .. !

وحين علم يوماً أن ــ خالدبن الوليد ــ أسرف في القتل في بعض غزواته ، جلجل غاضباً ، ورفع يديه إلى السماء معتذراً إلى الله ، ضارعاً وهو يقول :

« اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد ، اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد » .. !!

ولقد كان أمره لأصحابه بين يدي كل معركة :

« لا تقتلوا امرأة » .

« ولا شيخاً » .

« ولا وليدا » .

« ولا تحرقوا زرعاً »

« ولا نخيلاً » .

« ولا تنهبوا » .

« ولا تمثلوا بأحد » .

« واجتنبوا الوجوه ، لا تضربوها » . !

■ □ ■

وكما جاء عيسى ليكمل الشريعة .. جاء محمد ليستأنف المسير.

ولقد كان « الصليب الكبير» الذي أعدّه المجرمون للمسيح .. يتراءى للرسول دوماً !.

وما كان من الخير أن يُمكَّن المجرمون من انتصار جديد .. يتلمظون فيه بدم رسول شهيد .. !

ما كان من الخير أن تخنق دعوات الهدى في المهد ، كل مرة .

وإذا كان المسيح ، قد حمل « صليبه » من أجل السلام .

فإن محمداً ، قد حمل « سيفه » من أجل السلام .

كلاهما ، سيف .

الصليب الذي حمله المسيح ، سيف ، أراد اليهود أن يقضوا به على « ابن الإنسان » ورائد الحق ..

وسيف محمد ، سيف ، أراد محمد أن يقضي به على أعداء الإنسان ، وأعداء الحق .

وغاية الرسولين واحدة : السلام .

في دور المسيح ، كان السيف مُسلطاً على الحق .

وفي دَوْر محمد ، كان السيف مُسلطاً على الباطل .

وفي سلوك المسيح ، عبر السلام عن نفسه بالرحمة ..

وفي سلوك محمد ، عبر السلام عن نفسه بْالعدل .

وهكذا استكمل جناحيه اللذين يحلق بهما عالياً ..

والرسول لم يحترف القتَال ، ولم يكن له هواية ..

وإنه ليعلم أصحابه ، و يرسم لهم الحدود المشروعة للنزال :

« أيها الناس ..

« لا تتمنوا لقاء العدو .. »

واسألوا الله العافية ..

« وإذا لقيتموهم ، فاصبروا » .

أرأيتم .. ؟؟

إنه إنسان ودود ، مسالم .. لا ير يد لقاء العدو ، ولا يتمناه .

وإنه ليسأل الله في ضراعة ، أن يباعد بينه ، و بين هذا اللقاء .

ولكن ، إذا اضطره إليه واجب الدفاع عن الحق ، وتأديب الباطل فسينهض من فوره ، و يصبر على مشقات النضال .. !!

ولقد عاش المسيح ـــ في دعوته ـــ ثلاثة أعوام .

وعاش محمد ـــ في دعوته ـــ ثلاثة وعشرين عاماً ..

وعلى الرغم من قصر الزمن الذي عاشه المسيح داعياً ، وعلى الرغم من تشبثه بالتسامح المطلق .. فقد كانت مكايد المتربصين به تشد زناد غيظه ، فيزجرهم بكلمات شِداد .. و يكاد ـــ أحياناً ـــ يجنح إلى القصاص ، و يشيد بالقوة العادلة ..

فهو ـــ مثلاً ـــ يقول :

« إذا شتمك أخوك ، فوبخه .. فإن تاب فاغفر له » .

و يقول :

« حينما يحفظ القوي داره متسلحاً ، تكون أمواله في أمان » .

وكثيراً ما نراه ، وهو يخاطب ـــ أولاد الأفاعي ـــ يحتدم غيظاً .. وكأنه يرغب في أن يضربهم ، و يدحرجهم على الأرض ، كما فعل بموائد الصيارفة ، وأقفاص الباعة حين دخل الهيكل .. ولكن إدراكه العميق لدوره .. وإيمانه بأنه جاء الدنيا ليلقي عليها درساً عظيماً في التسامح والمحبة جعلاه يكظم غيظه ، و يشرب كأسه في سلام .. !!

قال لمن أراد أن يدافع عنه بسيفه ، حين هاجمه أعداؤه ليلاً ، ليأخذوه الى رؤساء الكهنة ، كي يحاكموه :

« رُدّ سيفك إلى مكانه .. أتظن أني لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبيَ فيقدم لي أكثر من اثني عشر جيشاً من الملائكة .. ؟؟

« فكيف تكمل الكتب .. ؟ إنه هكذا ينبغي أن يكون » .. !!

أجل ... هكذا ينبغي أن يكون .. ما دام قد جاء ليعلّم الناس ، كيف يمكن للحب أن يتفوق على الكراهية ، وللسلام أن ينتصر على المؤامرة .

■ □ ■

و بعد .. فهكذا كان ولاء محمد والمسيح للحياة ..

وهكذا كان موقفهما مع السلام .

لقد حملا تبعات الوجود .. وأديا أمانة الحياة على نسق جد عظيم .

وعلى الطريق الذي سارا عليه ، لا تزال كلماتهما ترسل ضياءً باهراً ، ولا تزال الدنيا تجد سكينة وأمناً ، في كلمات المسيح :

« سلاماً ، أترك لكم » ..

وفي كلمات محمد :

« كونوا عباد الله إخواناً » ..

الفَصْلُ السَّادِسُ

وَالآن ...

باراباس .. أَمِ المسَيح .. ؟

عندما قاد اليهود في أورشليم روح الله عيسى إلى « بيلاطس » الحاكم الروماني ، مطالبين بصلبه .. أطل « بيلاطس » عليهم ، ومضى يحاورهم في شأن المسيح ، إذ كان يعلم أنهم يريدون إسلامه للموت حَسَداً من عند أنفسهم ..

قال لهم : « ماذا فعل يسوع ، الذي يُدْعى المسيح » .. ؟؟

وأجاب اليهود ، ورؤساء الكهنة : « إنه يفسد الأمة » .. !!

وقال بيلاطس : « إني لا أجد علّة في هذا الإنسان » ..

ونبحت كلاب أورشليم نافذة بنباحها من الزاوية الحادة ، التي تحرج « بيلاطس » وتكرهه على الإذعان لنباحها .

« قالوا : « إنه يهيج الشعب .. ويمنع أن تُعْطَى جزيةٌ لقيصر .. وإذا لم تصلبه ، فلن تكون محباً لقيصر » .. !!

وقال بيلاطس : « إننا الآن في العيد وسنطلق كما هي العادة واحداً من المحكوم عليهم .. فليكن هو المسيح » ..

وتهارشَ رؤساء الكهنة ، وتراكضَ يهود أورشليم كالخراف الضالة .. وصاحوا جميعاً : « لا .. لا .. أطلق سراح « باراباس » ، أما المسيح فأصلبه » . !

و يلح « بيلاطس » كي ينزلوا عند رأيه ، فيقول لهم : « لقد فحصت

هذا الإنسان قُدّامكم ، ولم أجد فيه علّة ، ولا هيرودس أيضاً ، وجد فيه شيئاً مما تشتكون منه » ..

ولكنهم يَلْوُون ألسنتهم كأذناب الحيّات ، و يصيحون :

« خذ هذا .. وأطلق لنا باراباس » ..

« باراباس .. باراباس .. أما المسيح ، فاصلبه » ..

يقول إنجيل يوحنّا :

« .. وكان ــ باراباس ــ لِصّاً » .. !!

و يقول إنجيل لوقا :

« إنه كان مطروحاً في السجن لأجل فتنة ، وقتل » .

و يقول إنجيل مرقس ، مثلِ هذا أيضاً ..

■ □ ■ □ ■

إن نفس الخِيار، يُقَدّم اليوم و يعلن :

وإنه لمن حسن الحظ أن الذين يختارون اليوم ، ليسوا يهود أورشليم ولكنه العالم كافة .. والغرب المسيحي خاصة ..

لقد رفض أحبار اليهود في ذلك اليوم البعيد ، أن يختاروا المسيح ، لأنه جُماع فضائل لا يطيقونها .. ومشرق عصر عظيم لا يسمح لنقائصهم بالازدهار.. !!

وحتى حين خجل ممثل روما العاتية الباغية ، أن يشترك في المؤامرة الدنئة ، وتوسل إليهم كي يَدّعوا للمسيح حريته .. رفضوا ، وصاحوا به .. بل باراباس ..

الحرية لباراباس .. والصلب للمسيح .. !!

ترى ، ماذا يكون جواب البشرية اليوم ، حين يطلب إليها أن تختار.. ؟

إن محمداً رسول الله ، ليهديها إلى الجواب الحق .. ولقد سبق الى الاختيار السديد ..

لقد اختار المسيح .. أي اختار فضائله التي جاء ـ هو ـ ليبعثها من جديد ..

فمنذ ألف وأربعمائة عام إلا قليلاً ، وهو قائم هناك ، في شبه جزيرة العرب ، يبلّغ رسالاتِ ربه ، أعلن أن المسيح سيعود .. وسيملأ الأرض نوراً ، وسلاماً ، وعدلاً .. !! هذا هو، يقول :

« والذي نفسي بيده لَيُوشِكَنَّ أن ينزل فيكم ابن مريم مُقْسِطاً » .. !!

ترى ، ماذا نفهم من عودة المسيح .. ؟؟

إن الجواب يسير، إذا عرفنا ماذا كان المسيح .

أكان ذلك الجسد الناحل .. والشعر المرسل .. والثلاثين عاماً التي سجلتها له على الأرض شهادتا الميلاد والوفاة .. ؟ !

كلا ...

إن المسيح ، هو دعوته .. هو المثل الأعلى الذي تركه وأعطاه ..

هو الحب الذي لا يعرف الكراهية .. هو السلام الذي لا يعرف القلق .. هو الخلاص الذي لا يعرف الهلكة ..

وعندما تتحقق هذه كلها على الأرض ، تتحقق في نفس الوقت ، عودة المسيح ..

أجل ؛ إن المسيح الذي سيعود ، والذي تنبأ له الرسول بالرُّجْعَى ، هو هذا ..

هو السلام ، والحب ، والحق ، والخير، والجمال ..

ونحن ، مع « الرسول الأمين » ، نصيح :

المسيح .. لا باراباس ..

الحق .. لا الباطل ..

الحب .. لا الكراهية ..

السلام .. لا الحرب ..

الحياة .. لا الفناء ..

وإنا إذ نرفع في أيمانـنا هذا الاختيار، ليهدينا إليه وعي عظيم بحتميته ، وأفضليته ، وقيمته ..

ويهدينا إليه بصرٌ ثاقبٌ باحتياجات عصرنا الذي يمزّقه القلق والخوف ..

و بصر ثاقب بالمصير المروّع الذي سيحيق بالعالم إذا كتب النصر مرة أخرى للصرخة السافلة التي تقول :

باراباس .. لا المسيح ... !!!

إننا نعرف جيداً ، ونذكر تماماً .. أن « مائة وخمسين مليوناً » من البشر ، ذهبوا ضحية الحربين العالميتين السالفتين .. !!

« مائة وخمسون مليوناً » .. ما بين قتيل ، ومشوّه ، وجريح ، ومفقود .. !!

قَتلى ميادين الحرب .. وقتلى معسكرات الإبادة ... وقتلى الغارات الجوية .. وقتلى الأوبئة التي تَذْرُوها رياح الحرب المنتنة .. !!

« مائة وخمسون مليوناً » .. كانوا حصاد الهشيم .. والحصاد الأليم ، لحروب خلّقتها ، وأضرمتها ، الروح التي تؤثر « باراباس » .. وترفض « المسيح » .. !!

الروح المكفهر القاتم ، الذي ترى في الحرب صفقة .. وفي القوة امتيازاً .. وفي السرقة سيادة ، ونبلاً .. !!

الـروح الـقـائـظ المـلتاث ، الذي لا يحب الحب .. ولا السلام .. ولا الحق ..

تُـرى ، هـل يسيـطـر هـذا الـروح ، و ينشر على الحياة الجميلة ضبابه وظلامه .. ؟؟

تُرى هل يقتحم الأفق الوديع ، المشرق ، نباح الكلاب من جديد :

باراباس .. باراباس ..

أما المسيح ، فيصلب ..

أما السلام ، فيصلب ..

أما المحبَّة ، فتصلب ..

هل يمكن أن يحدث ذلك مرة أخرى .. ؟؟

إن الـتـفـاؤل الـصادق الذي ملأ به محمد رسول الله أفئدتنا ، ليجعلنا نجيب في يقين راسخ : لا ...

لن يحدث ذلك مرة اخرى ..

لـقـد أقـسـم « رسول الله محمد » أن المسيح قادم ، ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً .

ونحن نؤمن بصدقه ..

ونـؤمـن بـأن عودة المسيح هذه .. تعنى انتصار القيم التي كان المسيح يُمثلها ، والتي قهر بها الرسولُ عالم الوثنية والظلام .

تعني انتصار الإنسان ، وانتصار الحياة ..

تعني سيادة الحب ، وسيادة السلام ..

■ □ ■

عـندما هاجم غوغاء اليهود بستان الزيتون ليقبضوا على المسيح ، تقدم من الحرس ، وسألهم :

« من تطلبون » .. ؟؟

أجابوه : « نريد الناصِريّ » ..

فقال :

« أنا هو.. ولست أسألكم إلا شيئاً واحداً » .

ثم أشار بيد أمينة حانية صوب تلاميذه الذين كانوا معه في البستان ، واستأنف حديثه مع الحرس قائلاً :

« أن تَدَعوا هؤلاء ، يذهبون لبيوتهم ، حتى أستطيع أن أقول لأبي حين ألقاه :

« إن الذين أعطيتني ، لم أهلك منهم أحداً » .. !!

انظروا ...

في هذه المباغتة الشّرِّيرة المذهلة ، لم يذكر نفسه ، ولا حياته .. وإنما ذكر مسئوليته الكبرى تجاه الآخرين .. !!

لم يشترط لنفسه نجاة ، ولا سلامة .. وإنما اشترطها للآخرين ..

وذلك كي يستطيع أن يقول لربه حين يلقاه :

« إن الذين أعطيتني ، لم أهلك منهم أحداً » .. !!

هذا هو روح العصر الذي يبشرنا محمد بمجيئه .. والذي نرقبه صابرين .. واثقين .. عاملين ..

عصر يتفوق فيه الإيثار، والحب ، ويحمل الناس فيه مسئولية وعيهم ، وأمنهم ، ورخائهم ..

والواجب الذي سنذكره دَوْماً ، كلما ذكرنا المسيح ، ومحمداً .. هو:

- أن نجعل لوجودنا الإنسانى حقيقة ، ومعنى ..
- وأن نخصّ الإنسان والحياة بالنصيب الأوفى من تبعات رشدنا ..
- وأن يكون سبيلنا لهذا ، الحق القويّ .. والمحبّة اليَقْظَى ..

فهرس

الموضوع — صفحة

رقم الايداع
٨٦/٤٦٩١

محمد والمسيح ..

وليس هذا الكتاب تأريخاً للمسيح ، ولا تأريخاً للرسول .. فتاريخهما قد بسُط بسْطاً لا يشجع على التكرار ..

وإنما هو تبيان لموقفهما من الإنسان ، ومن الحياة .. أو بتعبير أكثر سَدَاداً .. موقفهما « مع » الإنسان .. و« مع » الحياة ..

لقد أخذنى حَنينٌ واع ، إلى الكتابة عن الرسول ، وعن المسيح ..

وفى ذات الوقت ، كان ينادينى الواجب الذى كرّست له ، أو أريد — دوماً — أن أكرس له حياتى ... وهو الإسْهام فى حماية الإنسان ، والحياة ، من الكذب .. ومن العجز .. ومن الخوف ..

وفى اللحظة التى يعطى فيها وجدانُ الكاتب إشارة البدء ، وجَدتُنى أكتب هذا الموضوع ، تحت هذا العنوان ..!

ولم أسأل نفسى ، كيف تمَّ هذا اللقاء السعيد بين رغبتى فى أن أكتب عن محمد ، وأخيه ، ورغبتى فى الكتابة عن الإنسان ، والحياة ..!

فأنا أكاد أعرف — تماماً — لماذا جاء محمد .. ولماذا جاء المسيح ..

دار ثابت للنشر والتوزيع : ٩٢ أ شارع محمد فريد — ص ب : ٦ باب اللوق — تليفون : ٧٦٩٥٧٤

المطبعة الفنية ت : ٩١١٨٦٢